9

أعمال التمرد

كان من المخطط أن تنتهي خدمة القائد بريور في العراق في منتصف شهر آذار، بعد سنة بالضبط من دخوله إلى البلاد مع قوات الغزو. قام بريور بالجولات الأخيرة على المكاتب المتواضعة التي أمضى فيها كثيراً من وقته: محطات الوقود، ومحطة البروبان، ودائرة الصرف الصحي. لم تخفَ مشاعره على شركائه العراقيين: كانوا فزعين لرؤيته يغادر. قال المدير العام لدائرة الصرف الصحي لبريور: «كنا كالجرحى المرميين على الطريق، ولا يتوقف أحد لمساعدتهم، فجئت وأخذتنا وأنقذتنا. هكذا ننظر للأمر: الدين، والقومية كل هذا لا يهم».

رافقت بريور في اجتماعه الأخير مع المجلس الاستشاري لحي الزعفرانية الذي كان قد ساعد في إنشائه. اجتمع المجلس الاستشاري للحي في مشروع المساكن الإسمنتية غير الجميلة لموظفي هيئة الطاقة الذرية. كانت مستنقعات المجاري التي كانت موجودة في شهر آب الماضي قد ذهبت. جلس بريور في أحد المكاتب مع تسعة أو عشرة من أعضاء المجلس. كانوا حزينين؛ لأنهم سيخسرونه، لكن أعضاء المجلس أمضوا الساعتين الأخيرتين مع بريور وهم يتذمرون بمرارة، قال أحمد أوغلي، رئيس المجلس الذي كان قد دعاني لتناول الغداء في شهر آب، «لا تزال سلطتنا بصفة مجلس استشاري للحي مهزوزة، ولا أريد مديحاً وعبارات لطيفة. لكن الناس لا يثقون بنا، فهم يأتون إلينا ويطلبون شيئاً، فلا نستطيع أن نفعل شيئاً. وهذا يجعلنا نبدو بصورة سيئة».

في الواقع، بسبب خلاف مع المجلس الحاكم، ترك بريمر الشهور تمر دون توقيع أمر قانوني أعدته سلطة الائتلاف المؤقتة في أواخر عام 2003 يوضح سلطة المجالس المحلية. هذا التأخير، مع توقف أموال الطوارئ العسكرية شهرين ونصف الشهر، ترك المجالس والجنود الذين يعملون معها في حالة من الإهمال، مما جعل إعادة الإعمار تقف تقريباً،

ومنـع الحكومة المحلية مـن التطور إلى مركز قوة يمكنها منافسة الميليشيات والمقاومين على الدعم الشعبي. كان هذا كله فوق مستوى بريور، لكن لأنه الأمريكي الذي في الغرفة فقد كان هو الشخص الذي سيسمع بذلك.

وحـين انتهى الاجتماع، وقف بريور وقال بشكل رسمـي: «أغادر هذا المكان، وأنا أعلم أن العمل لم ينتهِ. سيبقى في قلبي غصة؛ لأنني لم أستطع أن أراه حتى النهاية. لكنني أغادر وأنا أعلـم أن بغـداد والزعفرانية في أيدٍ أمينة؛ لأنها في أيديكـم». وقدم لأعضاء المجلس شهادة تقديـر. قـال بريور: «آمل أن آتي يوماً ما مع عائلتـي لأرى أصدقائي هنا، وأعدكم ألا أرتدي اللون البني أو الأخضر».

قال أحد أعضاء المجلس: «نحن نشكرك، ونعتذر عن أي أخطاء قد نكون ارتكبناها».

«لا داعـي للاعتـذارات. إن كان هناك شيء، فنحن ضيـوف في وطنكم، وعلينا أن نعتذر عن عيوبنا».

غادر بريور العراق إلى ألمانية، ثم ذهب إلى بلده في إجازة؛ ليرى خطيبته. في أوائل شهر نيسان، تفجر العنف في جميع أنحاء العراق. لكن الحادثتين الكامنتين وراء الثورات حدثتا في آخر أيام شهر آذار: إغلاق سلطة الائتلاف المؤقتة لصحيفة الحوزة في 28 آذار، وقتل أربعة من المقاولين الأمريكيين على يد المقاومين في الفلوجة في 31 آذار، وإحراق جثثهم وتقطيعها إلى قطـع وتعليقها على جسر فوق نهر الفرات علـى يد جموع مهتاجة. كانت حادثة الفلوجة مرعبـة، لكنها تنبئ بإسقاط الحرب في الغرب. كان إغلاق الصحيفة جرحاً أمريكياً ذاتياً. لكـن أصـول الأزمة المقبلة تعتمد بشـكل أكثر وأعمق حادثتي أواخـر آذار. كما أن القرارات المحيطـة بهمـا أظهرت كم أصبحت السيطـرة الأمريكية في العراق مزعزعـة في أثناء سنة الاحتلال، وكيف كانت التروس تتشابك بشكل سيئ بين الأمريكيين والعراقيين، وبين الجيش والمدنيين، وبين بغداد وواشنطن.

فاجـأت حرب العصابات التي أعقبت غزو العراق الجيش الأمريكي. لكن لم يكن عليهم أن يتفاجؤوا: فقد أصدرت وكالة الاستخبارات المركزية عدة تقارير استخباراتية سرية قبل

الحرب تحذر من إمكانية حدوث أعمال تمرد. وفي أثناء الانطلاق من الكويت إلى بغداد، كان فدائيو صدام، وهم قوات شبه عسكرية بقيادة قصي الابن الأصغر لصدام، ينهكون خطوط إمدادات الغزاة بهجمات يضربون فيها، ويهربون ويهددون المدنيين العراقيين بقتل أولئك الذين يرحبون بالأمريكيين بوحشية وعلى الملأ. وقد لاحظ الجنرال ويليام والاس، قائد الفرقة الخامسة: «أن العدو الذي نحاربه مختلف بعض الشيء عن العدو الذي خضنا الحرب ضده». ضربت أول عمليات التفجيرات الانتحارية نقاط التفتيش الأمريكية في الوقت الذي سقطت فيه بغداد؛ وبعد ذلك بأسابيع قليلة، بدأت ما سماها الجيش بالمتفجرات محلية الصنع بنسف القوافل في العاصمة. وقد سمح إنجاز الجنرال فرانكس في إسقاط النظام في ثلاثة أسابيع فقط، وقد تم الترحيب به بوصفه شكلاً جديداً متميزاً من الحرب، لآلاف العراقيين بالذوبان في صفوف الشعب أو الاختباء للقتال في اليوم الآتي. وقد وصف فرانكس وكبار الموظفين المدنيين في الإدارة الأمريكية لاحقاً الفوضى والمقاومة التي أعقبت سقوط النظام بأنها عواقب «النجاح الكارثي» لخطتهم الحربية بسبب الإهمال. لكن تبين أنه لم يكن هناك شيء سببه الإهمال.

عندما أصدر رئيس فريق التفتيش عن الأسلحة شارلز دولفر، التقرير النهائي لمجموعة مسح العراق في أواخر عام 2004، لم تكن هناك أسلحة دمار شامل توصف؛ فصدام لم يقم بإعادة بناء برامجه بعد أن دمرها التفتيش، والعقوبات، والتفجيرات في تسعينيات القرن العشرين؛ وبالمنطق المجنون في أواخر أيام حكمه، كان قد ادعى أنه يملك أسلحة لردع إيران عن الهجوم، وفي بعض الأحيان كان يخدع، حتى كبار الضباط العراقيين، وفي أحيان أخرى كان كبار العلماء العراقيين يخدعونه. كانت أكبر مخاوف الجيش الأمريكي في العراق خيالاً. لكن التقرير وجد أيضاً أن حرب العصابات كانت خطة العدو طوال الوقت: كتب دولفر، وقد بنى استنتاجاته على استجواب وكالة الاستخبارات المركزية لأعضاء رفيعي المستوى في النظام، بمن فيهم رقم واحد بنفسه: «كان صدام يعتقد أن الشعب العراقي لن يحتمل أن يكون تحت الاحتلال أو الغزو الأمريكي وأنه سيقاوم، مما يؤدي إلى التمرد، فقد قال صدام: إنه يتوقع أن تتطور الحرب من حرب تقليدية إلى تمرد».

قبل الحرب قامت الاستخبارات العراقية بتدريب مقاتلين أجانب على استخدام المتفجرات والرمي في معسكر جنوبي بغداد، في سلمان بك. (وصف مكتب استخبارات دوغلاس فيث، وأصدقاؤه في المؤتمر الوطني العراقي هذه العملية بأنها مركز تدريب للإرهابيين، وأنها دليل على ارتباط صدام بالقاعدة، لكنها كانت معسكراً تدريبياً لحرب العصابات التي لم يكن البنتاغون قادراً على تخيلها). بين شهر آب 2002 وكانون الثاني 2003، قام القادة العراقيون بنقل الأسلحة والمعدات من القواعد وإخفائها في المزارع والبيوت في جميع أنحاء الريف. وفي ليلة الغزو أخبر صدام كبار الوزراء والقادة أن يصمدوا ثمانية أيام «وبعد ذلك سأسيطر». وصل موظفو الاستخبارات الأمريكية فيما بعد إلى الاعتقاد بأن صداماً وكبار ضباطه كانوا يدرسون كتيبات فييتنامية عن تكتيكات حرب العصابات. ولعلمه أنه لا يملك أسلحة غير تقليدية، فقد كان الديكتاتور العراقي يستعد لنوع مختلف من الحرب، حرب قديمة قدم الرومان على الأقل. افترض مخططو الحرب الأمريكيون أنهم سيواجهون نوع المقاومة التي يستطيعون أن يهزموها بكل سهولة. لم يكونوا يريدون أن يخوضوا حرب عصابات، فهي لم تعد خياراً بعد فييتنام. وبالتخطيط للعدو الخطأ، لم ينجحوا في تطبيق المقولة القديمة: «اعرف عدوك». وكان ذلك خطأً آخر في التصور.

وهكذا أتيح للمقاومين العراقيين وقت للاستعداد، وكانت لديهم ميزة المفاجأة، وتكيفوا بسرعة مع تغير ساحة المعركة. في الأسابيع الأولى للمقاومة، كانت الهجمات ضد قوات التحالف عبارة عن اعتداءات مباشرة بالأسلحة الخفيفة والقنابل التي تعمل بالدفع الصاروخي. وهذه التكتيكات أدت إلى مقتل كثير من المقاومين منذ البداية. وحسب الطبيعة الداروينية لمثل هذه الحروب، ينجو المقاتلون الأذكى ويقومون بالتكيف. كانت أكثر الوسائل فتكاً هي المتفجرات محلية الصنع، وهي قنابل مصنوعة محلياً من القذائف المدفعية وغيرها من الذخيرة العسكرية (الموجودة في المصانع غير المحروسة وأماكن التخلص من الذخيرة في أنحاء العراق)، تدفن في حفرة على جانب الطريق، أو تخبأ بين النفايات أو الأنقاض، ويتم تفجيرها بوساطة سلك أو عن بعد بوساطة جهاز كالهاتف المحمول، أو جهاز فتح باب الكراج. وبحلول منتصف الصيف، كانت المتفجرات محلية الصنع والكمائن الأخرى تقتل عدداً من الجنود كل أسبوع، خاصة فيما بات يعرف بالمثلث السني، منطقة وسط العراق، والغرب، والشمال بين بغداد والرمادي والموصل.

أما في واشنطن، فقد وصف دونالد رامسفيلد هذه الهجمات بأنها عمل عدد من «اليائسين». وهذه العبارة تشير إلى عدد من البعثيين ذوي البطون المنتفخة والشوارب المصبوغة الذين يقفون الموقف الأخير المثير للشفقة؛ دفاعاً عن الفكرة التي لم يعد يذكرها أحد لمجد الاشتراكي العربي. وبعد ذلك أصبحوا موالين للنظام السابق، وبعدها عناصر من النظام السابق، وأخيراً قوات معادية للعراقيين، قال مسؤول رفيع المستوى في سلطة الائتلاف المؤقتة: «إنهم الآن مجرد عراقيين غاضبين، لكن لطالما كانت هناك هذه الرغبة في القول: إنهم أشخاص سيئون، إما من فدائيي صدام أو من الأجانب، وليسوا مجرد عراقيين عاديين. ليس خطأنا أنهم يكرهوننا، فهم سيكرهوننا مهما فعلنا. لم يكن هناك إدراك بأن تكتيكاتنا ربما تزيد المقاومة شدة».

كانت مواجهة الدور الأمريكي في تزايد التمرد خارج نطاق المجموعة الأولية تتطلب أولاً مواجهة التمرد ذاته. لكن لم تكن في واشنطن خطة لحرب عصابات، فحرب العصابات كانت ستغير جميع الحسابات حول الوجود الأمريكي في العراق، وهكذا لم تكن هناك حرب عصابات. على أرض العراق، كانت عواقب هذا التعامي حقيقية ومروعة، شأنها شأن التأخير شهوراً أو سنوات في وصول الإمدادات من الآليات المصفحة والدروع إلى القوات الأمريكية التي كانت «سرعة إيقاع عملياتها» تتزايد كل أسبوع. فحين طلب الجيش مزيداً من السترات الواقية من الرصاص، استغرقت الشحنة الأولى ما يقارب ستة شهور حتى وصلت إلى العراق. وفي كانون الأول 2003، كان الجنرال ريكاردو سانشيز القائد الأعلى للقوات الأمريكية في العراق، يكتب للبنتاغون أن النقص في قطع الغيار وغيرها من التجهيزات كان حاداً لدرجة «أنني لا أستطيع دعم عمليات القتال المستمرة بهذه المعدلات المنخفضة».

قال لي ت. إكس. هامس، وهو كولونيل في البحرية كرس مهنته لدراسة حرب العصابات: «أراهن أن القائد الذي كنت معه فهم منذ البداية أنه يواجه تمرداً. كانت قيادتنا غير قادرة أبداً على القيام بهذه القفزة. كانت الأخبار السيئة تصل ببطء شديد جدًا». وحين وقف الرئيس بوش على ظهر الناقلة Abraham Lincoln في أول أيار أمام لافتة ضخمة تعلن: «المهمة قد تم إنجازها» وتعلن عن نهاية المعارك الرئيسة في العراق. قال هامس لنفسه: «تباً، لقد لفت نظري أننا، يا إلهي، لا نفهم كم يمكن أن يكون هذا سيئاً».

كان هامس، وهو رجل ممتلئ الجسم، مربع الرأس، حاد الكلام، قد التحق بالقوات البحرية بعد سقوط سايجون بشهر، وأمضى العقود الثلاثة اللاحقة محاولاً أن يكتشف كيف استطاع مجتمع زراعي مكون من عشرين مليون شخص أن يهزم الولايات المتحدة. لم تكن القيادة العسكرية العليا مهتمة بمعرفة الإجابة عن هذا السؤال. بعد فييتنام «كان هناك رد فعل عميق بأننا لن نقوم بهذا ثانية. لقد توقفنا عن التفكير في التمرد منذ سنوات. ولذلك حتى عندما اكتشفنا وجود تمرد في العراق، لم نكن نعرف ما نفعل حيال ذلك». وعلى الرغم من أن القوات البحرية، كما ذكرني هامس، كانت دوماً «مجهزة للحروب الصغيرة» ومستقلة فكرياً، فقد أمضى سنوات مهنته وكأنه بعيد عنها. وقد درس في أثناء السنة التي حصل عليها بوصفها منحة النصوص التقليدية وحالات التمرد على الرغم من اعتراض معلميه الذين قالوا له: «أنت مجنون، نحن لا نتعامل مع التمرد»، وحثوه على دراسة شيء يتعلق بمجاله، كالحرب التقليدية في أوروبة. ثم تابع الخبرة العملية في الصراعات القذرة الصغيرة أواخر الحرب الباردة في هندوراس وأنغولا والصومال وأفغانستان. وقد اختار دراسة عقول الفدائيين المدعومين من قبل الولايات المتحدة، مفترضاً أن أشخاصاً مثلهم سيصبحون عاجلاً أم آجلاً الأعداء الرئيسين لأمريكة: «كنت أجلس هناك وأفكر: إذا كنت شخصاً سيئاً وعلي أن أحارب الولايات المتحدة، فإن كل الأمور التقليدية لا تبدو مفيدة لي. إذا كنت تريد أن تدرس مهنتك، فاذهب إلى جهة الطرف الثاني وانظر من هناك». وبعد أن وضع هامس خلاصة سنوات تفكيره حول التمرد في كتاب، قال الناشرون لوكيله: «كتاب ممتع، مكتوب بشكل جيد، لكن هذا الموضوع لن يهتم به أحد؛ لأنه لن يحدث». وأخيراً تم قبول كتاب «The Sling of Stone» «قاذف الحجارة» في ربيع عام 2003، حين بدأ «ذلك» يحدث.

سرعان ما أخذ التمرد العراقي الصفات التي كان هامس قد كتب عنها. فقد كان بشكل شبكة مجزأة، مما جعله غير فاعل من بعض النواحي، لكن في الوقت نفسه جعل هزيمته أمراً صعباً لعدم وجود عقدة قيادة مركزية، فكان من السهل أن ينجو من الخطر الكبير. تعلم أفراده من تجاربهم، وهم يتابعون تغطيتهم على قناة الجزيرة؛ كما أنهم كانوا ينسقون جهودهم عبر وسائل الإعلام، واستخدموا الشعب، عن طريق تخويفهم بشكل رئيس، وكذلك

بإغواء الأمريكيين ليقوموا بردود أفعال عنيفة تحرمهم من الدعم، واختاروا أهدافاً خفيفة. وكانوا يفتقرون إلى رؤية موحدة –فقد حدد هامس ما لا يقل عن خمس مجموعات في العراق لها أهداف مختلفة– ومع ذلك يجب أن يكون الحل لهذا النوع من الحرب سياسياً. فيجب أن تصبح المؤسسات الحكومية والأمنية العراقية قادرة على كسب ولاء الشعب. في هذه الأثناء، كان على الولايات المتحدة أن تقطع التزامات بعيدة المدى للصراع المديد. وكان الحكم النهائي هو الشعبين العراقي والأمريكي.

لم يكن أي من هذا أخباراً جيدة في البنتاغون ذي التفكير المعتمد على التقنية. كان الجنرال جون أبي زيد الذي خلف فرانكس قائداً للقيادة المركزية، وهو أمريكي من أصل عربي، أدرى بالمخاطر الإستراتيجية في العراق من سابقه، وقد اعترف في 16 تموز 2003 أن القوات الأمريكية كانت تواجه «حملة من حرب العصابات التقليدية». وكان يناقض رئيسه دونالد رامسفيلد بشكل مباشر، الذي قال قبل ذلك بأسابيع قليلة: «أعتقد أن سبب عدم استخدامي لعبارة (حرب عصابات) هو أنها غير موجودة». لكن الجنود في العراق سبقوا القيادة العليا في واشنطن كثيراً في إدراك خطورة العدو الذي باتوا يواجهونه. لكن حتى أفضلهم لم يكن لديه أنموذج جاهز لفهم التمرد العراقي. قال قائد الكتيبة الذي التقيته في كركوك، الكولونيل دوم كاراسيلو: إن دور الأمريكيين محررين، ومحتلين، ومواجهين للمتمردين في العراق ليس له ما يوازيه في تاريخنا العسكري. و«من الصعب المقارنة مع أي مكان آخر. إنه فريد جدًا». فألمانية واليابان وفييتنام والجزائر الفرنسية بعد الحرب، كلها نماذج مختلفة. «نحن نرى هنا وجهاً مختلفاً. إنها ليست حرب عصابات. وليست أمراً ماوياً. أنا شخصياً لا أعتقد أن هناك هيكلاً تنظيمياً كما في حركة التحرير الوطنية الجزائرية. إنها فوضى. لم يكن لديهم خطة، وليس لديهم خطة الآن».

ليس لدى التمرد العراقي قادة مثل ماو أو هو، وليس لديهم برنامج عملي سياسي شعبي وواضح. كما أن قتل عدي وقصي والقبض على صدام ليس له تأثير إستراتيجي فيهم. وهم لا يحاولون التقرب من الصحافة كثيراً (لا يقترب الكثير من الصحافيين من أي مكان فيه متمردون إلا بالمصادفة غير السارة أو الاختطاف، وحتى مع الاتصالات المرتب لها كان الصحافيون يعدون محظوظين إذا عادوا إلى أجهزة الحاسوب المحمولة الخاصة بهم). في

تجربة هامس للحروب الصغيرة في ثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين كانت أنواع التمرد الحديثة يمكن أن تتألف من خلايا متفرقة، أو عصابات إجرامية، أو ميليشيات عرقية، أو أسياد حروب إقليميين، متعاونين وأحياناً لا، لكنهم جميعاً فاسدون في دولة ضعيفة ذات مسؤولين محليين فاسدين. وعدم وجود بيان رسمي وقائد مؤثر يجعلها أقل متانة. لكن ما يفتقد إليه التمرد العراقي كان يعوض بالأسلحة والأموال والأفراد المدربين.

إن أهم أدوات مكافحة التمرد هي الاستخبارات. لكن هذا هو بالضبط ما كان ينقص الولايات المتحدة في العراق بسبب الإخفاق في التخطيط والتدارك البطيء للأخطاء. لم يكن هناك مترجمون للعربية على قرب كافٍ من كل كتيبة -كما أن مؤسسة تيتان، المقاول الذي استأجره البنتاغون لتزويده بهم، كانت ذات سمعة سيئة في جميع أنحاء العراق لبطئها- وغالباً ما كان الجنود يخرجون في دوريات، وليس لديهم طريقة لمعرفة ما يقال لهم، إن لم نقل ما لم يكن يقال. وفي أيلول 2003، كتب لي ضابط في إحدى الكتائب في بغداد قائلاً:

لا يمكن القيام بشيء حيال الأمن إلا إذا كانت هناك شبكة استخباراتية، أو نوع من قوة الأمن، في المكان الصحيح للقبض عل المجرم أو الإرهابي الصحيح... ليس هناك قوات أمن كافية، سواء من التحالف أو من العراقيين، للقيام بهذا العمل الآن. كما لا يوجد جهاز استخبارات عراقي. نحن نأتي بالمعلومات من الاستخبارات مفتوحة المصدر، أي الذين يأتون إلى البوابات الأمامية ويقولون: إن لديهم معلومات، ويقوم ضباط الاستخبارات لدينا باستجوابهم، أو باستجواب العراقيين الذين نتعامل معهم عبر مجالس الأحياء، ويقدمون بعض المعلومات، وهذه المعلومات لا تكون دائماً مفيدة. كما أن المحليين يستخدموننا أحياناً لأنهم يحقدون على جيرانهم. وقد جعلنا أحد المترجمين الذين عملوا معنا نشن هجوماً على بيت، قال: إن فيه أسلحة RPGs وأفراداً يشنون هجمات على قوات التحالف. لم يكن في البيت شيء، وقد أخبرنا الرجل الذي كان نائماً مع عائلته في الداخل فوراً بمن أرسلنا، وقد كان يدين للمترجم بمال وقال له المترجم: إنه سيرسل إليه الأمريكيين. وتبين أنه كان صادقاً. فطردنا المترجم واعتقلناه بدلاً منه.

ظل الجيش يدعي أن استخباراته تتحسن، لكن المعلومات كانت تأتي بسرعة أكبر مما

يستطيع ضباط الاستخبارات التعامل معها. ومع ذلك استمر عدد الهجمات اليومية في الارتفاع وازدادت تعقيداً. وفي شهر تشرين الثاني، وهو أكثر الشهور دموية منذ الغزو، قدر البنتاغون أن التمرد يضم خمسة آلاف مقاتل. وقد فاجأ هذا الرقم الكثير ممن قضوا وقتاً في العراق؛ لأنه قليل لدرجة لا تصدق. كانت الولايات المتحدة لا تزال تبدو رافضة أن تعطي هذا العدو الجديد الخفي قدره، وكما قال هامس: كأن «هذا التمرد عبارة عن انحراف؛ لذا فنحن نستطيع أن نواصل مع» ثورة التقنيات العالية في الشؤون العسكرية. وأضاف: «كان يبدو أن هناك شعوراً يتساءل (ماذا لو كانت حرب عصابات؟). مما يصدم الناس بالفعل القول: إن القوى العظمى ليس لها حيلة مقابل المتمردين».

كان النجاح الحديث الوحيد جدلياً هو النصر البريطاني على العصابات الشيوعية في ملايا في خمسينيات القرن العشرين، الذي استغرق عشر سنوات. وبعد أكثر من عام على بداية حرب العراق، كتب هامس مقالاً افتتاحياً لصحيفة نيويورك تايمز عن سير هارولد بريغز، الجنرال البريطاني المتقاعد الذي وضع الخطة السياسية العسكرية التي أدت إلى هزيمة الشيوعيين في ملايا. وبعد ظهور المقال، تلقى هامس اتصالاً هاتفياً من مكتب دوغلاس فيث: يطلبون منه أن يكتب ذلك بشكل مذكرة لوكيل الوزارة قبل يوم الإثنين القادم. قال هامس: «يبدو أنهم لم يسمعوا عن بريغز قبل ذلك». وقام بكتابة المذكرة كما ينبغي وأرسلها إلى البنتاغون. وفي ذلك الوقت كان فيث مسافراً: ومر الوقت، ولم يسمع هامس منهم إجابة. قال هامس: «ربما كان ذكر رقم السنوات العشر قد أفسدهم، لكن إن كانوا لم يسمعوا عن بريغز من قبل فنحن في ورطة».

كان كاليف سيب، وهو كولونيل ملازم متقاعد، يدرس في مركز Navy حول الإرهاب والحروب غير المنتظمة، ذهب إلى العراق مرتين عام 2004. في أواخر ثمانينيات القرن العشرين، كان سيب، بصفته رائداً في القوات الخاصة، قد عمل مستشاراً للواء في الجيش السلفادوري فيما عده، نجاحاً في مكافحة التمرد، ولو كان وحشياً، ثم قام بتحليل حروب أمريكة الوسطى في أطروحته في هارفارد، حيث التقى درو إردمان. كان سيب، مثل هامس، من المفكرين المستقلين على هامش الجيش، الذين شاهدوا القيادة العليا تخفق في فهم

الوضع الإستراتيجي لأمريكة في الحروب اللاحقة للحادي عشر من سبتمبر. (في العراق، كما في فييتنام، يجد المرء لدى المدنيين والعسكريين ذوي الرتب المتوسطة بصيرة أكثر مما لدى قياداتهم؛ لأن الضغط السياسي على ذلك الارتفاع كان منخفضاً، بحيث يسمح بالتفكير الواضح، ولأن صدقهم الفكري يقلل من احتمالية تقدمهم المهني). قام الجنرال أبي زيد بتعيين سيب أول مرة لدراسة الاستخبارات العسكرية في العراق، ووصل إلى القصر في بغداد في كانون الثاني 2004. وسرعان ما اكتشف أن الضباط العاملين في سلطة الائتلاف المؤقتة كانوا يشعرون باستهانة لا يكادون يخفونها لمعظم نظرائهم المدنيين الأصغر سناً والأقل خبرة، الذين يتعاقبون في القدوم إلى العراق في جولات تمتد تسعين يوماً. كما وجد أن الجنرال سانشيز، قائد القوات البرية في العراق، وموظفيه قد اتخذوا موقعاً دفاعياً لدرجة الذعر من أي شخص يأتي من الخارج. وفي ذلك الوقت كانت الأمور تسوء لدرجة أن أي عرض للمساعدة كان ينظر إليه على أنه محاولة لإلقاء اللوم. كان هناك كثير من الأمور لتجاوزها -كان الجميع تقريباً يدركون أن سانشيز فوق رؤوسهم- لكن إغاثة القيادة على مثل هذا المستوى العالي كانت ستعد اعترافاً بالإخفاق؛ لذا كان عمل سانشيز بأمان (ولم يعاقب إلا بعد العراق، حين أخفق في الحصول على النجمة الرابعة).

في القصر، التقى سيب كولونيلاً في القوات الخاصة للجيش كان يجلس على بعد مكتبين من باب المكتب الداخلي لبريمر. وشارك سيب مع الكولونيل في محادثة، محاولاً أن يفهم التفكير الإستراتيجي لسلطة الائتلاف المؤقتة، واستخدم في نقطة ما كلمة «تمرد» فرفع الكولونيل يده وقال: «لا يوجد تمرد هنا، وإنما يوجد مستوى عالٍ من العنف المحلي». وفي مقر الفرقة الخامسة في بيت الصيد الريفي القديم لصدام على البحيرة قرب المطار، وجد سيب جواً يوحي بالعمل الروتيني للموظفين في هيدلبيرغ، وليس بالمحاسبة على حرب تزداد سوءاً. كان خط الأحداث في بغداد يعكس نظرة ضعيفة المخيلة، إذ كان سيب قد رآها تأتي من البنتاغون بإدارة رامسفيلد. وكان النجاح يقاس بعدد المتمردين من البعثيين رفيعي المستوى من مجموعة ورقة اللعب الذين يتم القضاء عليهم. لم يبدُ أن أحداً كان قادراً على تفسير استمرار الزيادة في عدد المتمردين، مع كل القتلى أو المسجونين. كانت الإستراتيجية خاطئة كلياً، كما أدرك سيب. فبدلاً من التركيز على التهديدات، كان يجب التركيز على الآثار،

والحالـة النهائية المطلوبة التي تجعل مركز الأحـداث في حياة العراقيين. قال سيب: «الشيء الأهم هو الأمن، أمن النـاس. كانت المشكلة أننا تمسكنا بفكرة أن أمننا نحن هو الأهم. وهنا يتطلب الأمر بعض التضحية، فيجب تأمين النـاس أولاً».

كان هذا معنى عبارة القلوب والعقول (وهي عبارة كان أول من استخدمها هو جون آدامز عن الثـورة الأمريكية، كما ذكرني سيب): أي إنشاء حكومـة يرغب العراقيون بالمخاطرة في إعطائهـا الولاء. لقد فهم المتمردون أكثر من الأمريكيـين أن المعركة كانت على ولاء الشعب. فبـدؤوا بذبح المنتسبين للشرطة؛ ليظهروا للعراقيـين أن المؤسسات الجديدة غير قادرة على حمايتهم، لكن الأمريكيين، بعد أن قاموا بحل قوات الأمن العراقية السابقة، لم يضمنوا أمن العراقيين الذين تقدموا للعمل في الاستخبارات. كانت جهود التدريب الأولى تركز على تشكيل جيشـ عراقي تقليدي -وهذا آخر الأولويات- مع وجود مئـة وستين ألفاً من الجنود الأجانب في العـراق. لم يكـن المدربون مـن الخبراء في القـوات الخاصة الذين وجـدوا أصلاً لتدريب الجيوش الأجنبية، وإنما من أولئك الذين كانوا يستخدمون في العراق لكسر الأبواب. لم يكن البنتاغـون يريد القيام بتدريـب الجنود العراقيين، وبدلاً منه قامـت سلطة الائتلاف المؤقتة بذلـك باستخدام مقاول خاص. قـال لي والتر سلوكومب، مستشار بريمر للأمن: «لو كنا من البدايـة قادرين على أن نقول: إن تدريب الجيش العراقي هو مهمة عسكرية، لكان ذلك أمراً جيـداً علـى الأرجح. لكن الجيشـ لم يكن يريد القيام بذلك». تم التعاقـد مع مؤسسة خاصة اسمهـا فينيل Vinnell، وهي فـرع لنورثروب غرومان Northrop Grumman، بعقد قيمته 48 مليون دولار. قال سيب: «كان من المفروض أن يقوموا بتدريب اثنتين وعشرين كتيبة، ولكنهم دربـوا ستـاً فقط، فقد هرب نصف الجنود، والآخرون لم يكونـوا مدربين». جاء أحد موظفي أبي زيد للتفتيش على عمل فينيل. «كان غاضباً، كان غاضباً بالفعل، من سوء التدريب وسوء التجهيـزات التـي كانت مؤسسـة فينيل تعطيها للجنـود العراقيين». أخـذ الجيش العمل من المقاول غير الكفء، لكن بعد أن ضاع وقت ثمين، وضاعت معه ثقة جماهير العراقيين.

أرادت إدارة بوشـ أن تدعي إستراتيجية للخـروج من المأزق، وذلك بتدريب أعداد كبيرة مـن القوات بسرعـة، فسعـوا إلى تدريب كل من رغـب في أن يصبح من الجنـود والشرطة.

قال سيب: «لم تستطع قيادة الجيش أن تنظر إلى القيادة السياسية، وتقول: أنا أقدر أن الانتخابات الرئاسية على الأبواب، لكنها يجب أن تتم بهذه الطريقة». استمر البنتاغون وسلطة الاحتلال في إصدار أرقام مضللة تماماً حول القوة البشرية والتدريب. وحتى في عام 2003، كان رامسفيلد وبريمر يذكران أعداداً تقارب 150.000، لكن في عام 2004، أظهر تقرير لسلطة الائتلاف المؤقتة حول قوة الشرطة الجديدة أن أقل من ستة آلاف من أصل تسعين ألفاً كانوا قد تلقوا تدريباً أكاديمياً جاداً مدة تزيد على أسبوعين أو ثلاثة. ونتيجة لذلك، تركت الشرطة قليلة العدد والعُدة مراكزها في الشمال في أثناء تمرد نيسان، وانهار الجنود الجدد الذين قامت كتائب ككتيبة بريور بتدريبهم؛ ورفض الحرس أن يستقلوا الطائرات المروحية التي جاءت لتنقلهم للمشاركة في القتال مع الأمريكيين ضد العراقيين.

تطوع تي. إكس. هامس للذهاب إلى بغداد في كانون الثاني 2004 للعمل في التدريب، ووجد أن العاملين في العملية الأمريكية كانوا أقل من نصف العدد المطلوب. لم يكن هناك نظام لطباعة الهويات العراقية باللغة العربية، أو للحصول على أجور نقدية للجنود بصورة فاعلة. وبحلول شهر أيلول، حين كان الجنرال الذي حصل على ترقية حديثاً ديفيد بتريوس يحاول التعويض عن الوقت الضائع، كان مستوى العاملين لا يزال 60 بالمئة فقط. كانت مشكلة القصور البيروقراطي في واشنطن نفسها التي تربك عملية إعادة الإعمار. قال هامس: «من الواضح أن الطريقة الوحيدة للخروج من العراق هي تدريب قوات الأمن العراقية، وقد أخفقت هذه الإدارة في ذلك تماماً». وبسبب أنظمة القوى البشرية، تم استدعاء هامس إلى واشنطن بعد شهرين على الرغم من أنه كان قد تطوع سنة، لعلمه كأي شخص آخر بأهمية التدريب لمكافحة التمرد في العراق.

كتب أنتوني كوردسمان من مركز الدراسات الإستراتيجية والدولية الذي كان يتابع التدريب عن قرب، في تموز 2004: «لقد أخفقت الولايات المتحدة في التعامل مع العراقيين بوصفهم شركاء في جهود مكافحة التمرد مدة سنة تقريباً، ولم تحاول أن تدرب وتجهز القوات العراقية جدياً لمهمة حفظ الأمن ومكافحة التمرد حتى شهر نيسان 2004». وقد تبع هذا الإخفاق مباشرة الخطأ الأول للبنتاغون، حين تعامى عن التمرد. «لقد أهدرت الولايات المتحدة وقتاً ثميناً في انتظار أن تتغلب قواتها على تهديد عدته عمل عدد صغير

مـن المواليـن للنظام السابق والمتطوعـين الأجانب، وشعرت أنها تستطيـع التغلب عليه دون إنشـاء قـوات عراقية فاعلة». وقـد بدا أن قوات الأمـن العراقية الجديدة كانـت تشعر أنه يطلب إليها القتال عن الولايات المتحدة وليس عن العراق، وكانت مستاءة من الأجور القليلة والتجهيزات الضعيفة. ودون الانضباط القاسي لجيش صدام، لم يكن معظمهم قادراً على تشكيـل قوات قتال متماسكة وسرعان ما تفككوا تحت ضغط إطلاق النار. وقد قال لي أحد المسؤولـين في سلطـة الائتلاف المؤقتة مرة: إن كثيراً من أكـثر العراقيين شجاعة وإخلاصاً ومثالية بدا أنهم يقاتلون في الجهة الأخرى.

إن التمـرد السني الذي كان يغذيه حزن أقليـة كانت قد حكمت العراق بشكل رئيس منذ نشأتهـا، وتنبـأت بإلغاء دورها في النظام الجديد، خاصة بعـد حل الجيش واجتثاث البعث، جعل الموضوع أوضح من اللازم. كان العمود الفقري للتمرد -المنظمين، والممولين، والموردين- من مسؤولي حزب البعث والخدمات الأمنية والاستخباراتية الكثيرة للنظام السابق. وبدأت رسائـل غامضة تظهر باسـم «حزب العودة». لكن منذ وقت مبكـر، كانت صفة التمرد أكثر تعقيـداً من فعل حامية جيش الحـزب الحاكم الذي مضت لحظته في التاريخ. فقد تجذر ما يمكـن تسميته بقومية السنيين لدى بعض العراقيين الذين لم يكونوا قد استفادوا كثيراً من حـزب البعث. كانت دوافعهـم متنوعة ومتداخلة: الوطنية والديـن والاستياء الشخصي من بعض الإصابات التي سببها الجنود الأمريكيون. ويبقى التمرد غير مفهوم بشكل جيد ربما لأنه يتحدى التصنيف.

التقيـت بشيخ عشيرة من الرمادي اسمه زيدان خلف العوض، كان قد هرب من الجيش الأمريكـي إلى عمان بالأردن. وهو رجل تقليدي، كان ينظر إلى الأمريكيين بوصفهم شركاء يمكن أن يفيدوا عشيرته، وقال: «إنه لم ينضم إلى التمرد إلا حين جعلت تصرفاتهم التعاون مستحيلاً، ونحن العراقيين من طبيعتنا أن نأخذ بالثأر. إذا قتل ابن عمي أخي، كان علي أن أقتلـه. فإذا جاء الأمريكيون من مكان يبعد آلاف الأميـال فاستحيوا نساءنا وآذوا أطفالنا، كيف يمكنني أن أتركهم؟!».

لم يكـن هناك شـيء مشترك تقريباً بينه وبين العراقي الشـاب الذي التقاه صحافي من صيحفـة Observer الأسبوعية اللندنية في بغداد. كان ذلك الشاب من المعجبين ببون جوفي

والأفـلام الأمريكيــة قبل الحرب، وكان قــد رحب بالغزو، متخيلاً حيــاة جديدة من الحرية والسفــر والبضائع الاستهلاكية، إلى أن حوله منظر القتلــى المدنيين والنهب إلى متمرد تام في خليــة مستقلــة مكونة من سبعة رجال (بينما تابع عملــه في إحدى وزارات الدولة). كانت شـكاوى هــذا المقاتل عبارة عــن مزيج من الضيق المــادي والكبرياء القومــي الذي لم يصل إلى برنامــج عمل سياسي واضح. وجــد أن الجهاديين الأجانب في العراق متهورون ودمويون لدرجة لا يمكن بها العمل معهم.

كان السنيــون العراقيــون هم مجددو البلاد، وكانوا في المدن يميلــون إلى أن يكونوا أكثر علمانيــة من الشيعــة. لكن العقيدة الإسلاميــة التي سيطرت في الــدول العربية الأخرى مع الأنظمــة العلمانية القمعية الفاسدة، نشــرت بسرعة فتاكة في أرجاء العراق المحتل، النظرة الافتراضيــة العالمية لمجموعــة محرومة فجأة. وقد فر صديق لأحــد المترجمين الذين عملوا معــي إلى اليمــن وأطلق لحيته وأصبح جامعاً لأفلام قطع الرؤوس، بعد أن كان طالباً هانئاً مستمتعــاً قبل الغزو. كان التحول يحدث أحيانــاً في أقل من نصف ساعة. وقد روت صحيفة The Washington Post قصــة خريــج جامعي في الثانية والثلاثين مــن عمره يعاني السمنة وعاطــل عن العمل، وكان يتحدث الإنكليزية ويعيش مع والدته في الأدهمية. كان يقبل بوجود الأمريكيــين في العــراق، إلى الليلة التي داهمــوا فيها بيته. لكنهم أذلــوه في تلك الليلة بنشر مجلاته السرية التي تحمل صور فتيات باستهزاء على السرير بجانب القرآن. وبعد عشرين دقيقــة من ذهاب الجنود، بدأ الشاب يصفع والدته ويصرخ قائلاً: إن الأمريكيين شياطين. أمضــى تلــك الليلــة في المسجــد، وحين عــاد إلى البيت في اليــوم اللاحق رمــى كل الأجبان المصنوعة في دول أجنبية التي كانت في الثلاجة، وأحرق كل الصور الغربية في البيت، وحرم علــى والدته مشاهدة الأخبار أو الأفــلام الغربية. وحين اشترت بعض الأدوية المضادة للقلق لابنهــا المضطــرب، رفض تنــاول الحبوب: فالحبــوب الصفراء كانت من اليهــود والحمراء مــن الأجانــب الأشرار. وكمــا ظهر للعالم مــن فضيحة سجــن «أبو غريب»، فــإن الاحتلال العسكــري والعــار الجنسي مزيــج قابل للاشتعــال. كانت تجاوزات الجنــود تتجاوز في نظر الرجال العراقيين حدود أكثر المناطق حساسية. فقد كانت المداهمات تقبض على النساء في العائلــة بملابس النوم، وكانت هناك إشاعات دائمة بأن نظــارات الرؤية الليلة تسمح برؤية

obeikandl.com

مـا تحـت الثياب. ربما يكون الشـاب في الأعظمية قـد عانى المشكلات النفسيـة ذاتها التي يعانيها شخص ذو وزن زائد وعاطل عن العمل في أمريكة. لكن كان في العراق عقيدة عنيفة مستعدة للاستجابة للحظة أزمته.

أثبتت حرب العراق أن بعض مزاعم إدارة بوش كانت خاطئة، كما حققت مزاعم أخرى. كان مـن تلك المزاعم الإصرار على وجود ارتبـاط عملياتي بين العراق والقاعدة. فالحقيقة أن صداماً كان دائمـاً يبقي مسافة حـذرة بينه وبين الجماعات الإسلاميـة الإرهابية، وقد كسـب الأئمـة السنيين المحافظـين في العراق فقـط؛ ليستخدمهم واجهة. لكـن بعد سقوط النظـام، كانت القوة العقديَة الأكثر فاعلية خلف التمرد هي الإسلام وعداوته للدخلاء غير الإسلاميـين. حتى إن بعض المسؤولين البعثيـين السابقين توقفوا عن شـرب الخمر وبدؤوا يصلـون. كان التمرد يسمـى مقاومة، وكانت لها معانٍ إضافية تضفـي عليها شرعية دينية، وأصبح مقاتلوها مجاهدين، وادعوا أن مهمتهم هي الجهاد.

ضـرب التفجيـر الإرهابي الأول السفـارة الأردنية في بغـداد في 7 آب 2003، وسرعان ما تبعه تدمير بعثة الأمم المتحدة. وفي شهر تشرين الأول اشتد العنف في أنحاء العراق مع بداية هجوم رمضان ونسف مقر الصليب الأحمر وعدة مراكز شرطة في بغداد في صباح دامٍ واحد. وفي تشرين الثاني، اقتحم انتحاري بسيارته القاعدة الإيطالية في الناصرية وقتل تسعة عشر إيطاليـاً. وفي كانون الثاني، قتل أكثر من عشرين شخصاً بتفجير جعلهم أشلاء، بينما كانوا ينتظـرون؛ لدخول بوابـة الحشاشين. كان هناك اعتقاد واسع بـأن هذه التفجيرات من عمل مقاتلين أجانب منتسبين إلى القاعدة، ويقودهم الإرهابي الأردني أبو مصعب الزرقاوي الذي هاجـر إلى العراق بعـد هزيمة القاعدة في أفغانستان. كانـت الإستراتيجية واضحة وناجحة إلى حـد كبير: وهي عـزل المحتلين الأمريكيين في العـراق بإخراج القـوات الأجنبية الأخرى مـن البـلاد، وتهديد أي عراقي يتعاون معهم. لم يكن أحد يعلـم عدد الجهاديين الذين كانوا يتسللـون عـبر الحدود العراقية غير المراقبـة، فقد كان الجيش الأمريكـي يقول: إن عددهم بالمئـات. وقـد أدخلوا أشـكالاً من العنف عجـز عنها البعثيـون والتمرد القومـي السني على الرغـم من وحشيتهما، لكـن خططهم طورت أهدافاً مشتركة مـع المقاتلين المحليين. وأخيراً بدأ الجهاديون باستهداف المدنيين العراقيين بالتفجيرات الجماعية لمجرد كونهم من الشيعة

أو الأكراد، كما في تفجيرات عاشوراء. كان المتطرفون السنة يرون الشيعة غير مسلمين، وكان عدد كبير من السنة يخشون الشيعة؛ لأنهم يمثلون الأغلبية الديمقراطية في العراق، أما الأكراد فكانوا يعدون عملاء للأمريكيين واليهود. طلب الزرقاوي المباركة والمساعدة من أسامة بن لادن في رسالة حصل عليها الجيش الأمريكي ونشرها. كانت الرسالة تظهر إستراتيجية تقوم على إثارة حرب أهلية عرقية لمنع ظهور حكومة ديمقراطية. ازداد الكره للجهاديين الأجانب في العراق -حتى في الفلوجة، حيث زادت سيطرتهم أكثر فأكثر مما أدى إلى أحداث العنف في نيسان- لكنهم كانوا يحققون هدفاً مفيداً لكل من العراقيين والأمريكيين، فإذا كان السودانيون والجزائريون والمصريون والسوريون والسعوديون وغيرهم من العرب هم الذين يقومون بنسف العراقيين وتحويلهم إلى أشلاء، فهذا يعني أن البلاد تتعرض لإرهاب دولي، وليس لحرب أهلية كما كان الجميع يخافون. وحتى بعد أن تمَ التعرف على بعض الإرهابيين وتبين أنهم عراقيون، ظل السكان المحليون مصرين على أن العراقيين لا يمكن أن يفعلوا أشياء كهذه. كان يجب أن يكون الإرهابيون من الأجانب، إما من الجهاديين العرب أو عملاء أمريكيين يسعون إلى استمرار الاحتلال.

ظهر بين العراقيين الشباب الذين استطاعوا الوصول إلى وسائل الإعلام الحديثة اهتمام بأقراص DVD ومواقع الإنترنت التي تعرض لقطات لهجمات على الجنود الأمريكيين، وقطع الرؤوس، ومشاهد مأخوذة من جرائم حقبة البعث، وغيرها من التسالي البشعة. كان الجو وحشياً لدرجة أن أنباء جرائم القتل الجماعي أصبحت شيئاً عادياً غير مؤثر. كانت الحكايات الشخصية التي أسمع عنها أكثر تأثيراً بطريقة ما. فقد كانت تشير إلى وباء من العنف الذي لم يعلن عنه إلى حد كبير. أخبرتني أخت سائقي، وهي مختصة في أمراض الشيخوخة تعمل في مستوصف عام بأن امرأة جاءت في اليوم السابق، وقد تعرضت لصدمة شديدة: فقد قتل زوجها الذي كان يعمل مترجماً في قاعدة أمريكية، رمياً بالرصاص أمام عينيها. كما كان لأحد مترجمي، وهو أيضاً طبيب، صديق من الكلية الطبية، وكان شيعياً، ذهب للعمل في عيادة قرب الرمادي؛ ليكون قريباً من خطيبته. فشك السكان المحليون فوراً في أنه جاسوس -وإلا فلماذا يرغب شيعي في العمل في مكان وحشي كمحافظة الأنبار؟- فقطع رأس الطبيب وخطيبته. وقد ظهر صاحب مصنع في الموصل في فيلم وثائقي قال: إن سقوط النظام حسن

عملـه، وقـد عُرِض الفيلم عدة مرات على محطات فضائيـة عربية، وبعد ذلك بمدة قصيرة خُطـف عم صاحب المصنـع؛ وحين دفعت العائلة الفدية لإطـلاق سراحه، كان بلا عينين ولا يدين. وكانت هناك هذه الورقة التي وجدتها امرأة عراقية أمريكية تعمل مع سلطة الائتلاف المؤقتة في الكاظمية، وأرتني إياها:

«**بسم الله الرحمن الرحيم. هذا هو الإنذار الأخير**: إلى الجواسيس في المجلس المحلي، إلى جميع المترجمين والمنسقين الذين يعملون مع قوات الاحتلال: نحذركم بأنه عليكم العودة إلى ربكـم وإلى النـاس، وإلا فـإن مصيركم معـروف سلفاً وعقوبتكم ستكـون عادلة؛ لأنكم تخـبرون عن أبنائنـا وإخواننا وهم يُعتقلون الآن، وإذا تعرضـوا إلى أي خطر فإننا سنحقق العـدل بأيدينا؛ دفاعاً عن شعبنا الذي يرفض الخائن أكـثر من المحتل. فإن لم تتوقفوا بعد هذا الإنذار، فسنخبر عائلاتكم بأنكم جواسيس وسيتبرؤون منكم؛ لأنكم خائنون وقد بعتم أرضكم وشرفكم. سنقول لعائلاتكم أن يطردوكم من بيوتكم على الملأ، وإلا فإنهم سيكونون مثلكـم وسيتحملون المسؤوليـة أيضاً. الله أكبر، وعاش العراق الحبيـب بعزة وكرامة، ولعنة الله على كل من يمد يد العون للمعتدين».

لم يقدم التمرد السني رؤية سياسية يمكن أن تكسب أعداداً كبيرة من العراقيين. كان خطابـه قومياً وإسلامياً، وكانت إستراتيجيته طائفية بشـكل متزايد. لكن ما برع به فعلاً هو الخوف.

أما التمرد الشيعي فقد كان مختلفاً بشكل جوهري. فقد بدأ في 10 نيسان 2003، في أكثر الأضرحة الشيعية قدسية، وهو قبر الإمام علي في النجف. عاد آية الله عبد المجيد الخوئي، ابن آية الله العظمى الذي كان أكبر علماء الدين الشيعة في العراق قبل السيستاني حتى مات عام 1992، إلى العراق من المهجر بدعم أمريكي في أوائل نيسان ودخل إلى مسقط رأسه في النجـف. كان الخوئـي يدير مؤسسة لحقوق الإنسان في لنـدن، وكان يريد أن يرشد الأغلبية الشيعيـة في العـراق باتجـاه الديمقراطية. رأى مقتـدى الصدر ظهـوره في المدينة المقدسة تحديـاً مباشـراً، فقد كان هو أيضـاً ابن آية الله الراحـل المبجل، لكنـه كان راديكالياً أكثر

obeikandi.com

كثيراً من الخوئي في قالب ثيوقراطي، وكان مدعوماً من قبل إيران. وفي صباح 10 نيسان، ذهب الخوئي إلى المزار؛ ليقوم ببادرة مصالحة نحو المراقب البعثي للمزار. تجمع غوغاء من أتباع الصدر في الخارج، وأحاطوا بمكتب المسجد. قتل المراقب في تلك البقعة، فأطلق الخوئي النار دفاعاً عن النفس، فقيدوه وضربوه وسحبوه إلى باب مقر الصدر. تكلمت مع القاضي الشاب، رائد جوحي، الذي كان يحقق في القضية (وهو الذي تلا فيما بعد التهم الموجهة لصدام حسين في أول ظهور له في المحكمة). أخبر شهود عيان الجوحي في التحقيق بأن الصدر ظهر على الباب، فسأله الرعاع عما يجب عمله مع الخوئي، فنقل الشهود عن الصدر إجابته: «خذوا هذا الشخص من هنا واقتلوه».

تم التحقيق بعد القتل بشهرين، ولكي يتم تشريح جثة الخوئي المدفونة داخل المزار، حصلت الشرطة على إذن من عائلة الضحية للقيام بنبش الجثة، وذلك يعد من أكثر الأفعال منافاة للإسلام، وأخرجت الجثة في منتصف الليل. أكد الإصبع المقطوع، والتمزق، والجروح من أثر الطعنات، وكسور العظام شهادة الشهود حول طريقة موت الخوئي (وأعيدت الجثة ليعاد دفنها بعد عدة أيام تحت غطاء من جنازات أخرى). أصدر الجوحي مذكرات اعتقال بحق الصدر وعشرين شخصاً آخر. لكن سلطة الائتلاف المؤقتة اعتقلت الصدر فقط بدلاً من إعدام جميع الموقوفين.

كانت جريمة قتل الخوئي نذير شؤم بقدوم العنف السياسي. في الكويت، تلقت الدائرة الداخلية لجاي غارنر الأخبار دون قلق. قال أحد الجنرالات المتقاعدين: «آه، إنهم فقط يقتلون بعضهم». لكن الصدر كان قد ضرب ضربة جريئة مبكرة في صراع القوة الشيعي الداخلي، وما كان من رفض الأمريكيين لمواجهة الصدر إلا أن شجعه على التقدم بقوة أكبر. وبعد قتل الخوئي بمدة قصيرة، قام أتباع الصدر بمحاصرة البيت الصغير المستأجر لآية الله السيستاني في النجف، لكن رجال العشائر المسلحين في المنطقة قاموا بطردهم. كان المنافسون الرئيسون للصدر عائلتي رجلي الدين الآخرين -الخوئي والحكيم- الذين كانوا يتنافسون على الزعامة، وكانوا أكثر استعداداً للعب تحت حكم سلطة الائتلاف المؤقتة. كان

(1) المحكمة الكنغرية هي محكمة لا تراعي مبادئ القانون والعدالة (المترجم).

الصدر في الثلاثين من العمر تقريباً (لكن عمره الدقيق بقي سراً - فقد قال بعض المواطنين: إنه لا يزال في العشرينيات) وكان يرتدي عمامة رجال الدين السوداء، وله لحية سوداء كثيفة، لكن لم يكن يحمل شهادات علمية؛ وكانت عبسته بعينيه الغائرتين قليلاً وانفجاراته الديماغوجية تجعل معظم من يراه غير مرتاح. كان بعض العراقيين يعتقدون أن الصدر مريض عقلياً، وقد وصفه أحدهم بأنه «منغولي». لكن الصدر كان لديه سلاحان يجعلان من غير الحكمة عدم تقديره بشكل الصحيح: عباءة والده، وأتباع والده من الشيعة الشباب الفقراء المحرومين، الجيل الذي أوجده صدام، الذين قام مساعدو الصدر بتنظيمهم وتسليحهم؛ ليشكلوا جيش المهدي. استولى جيش المهدي على المدارس والمشافي، وأرهبوا العاملين، واعتدوا على النساء غير المحجبات، وشكلوا محاكم شرعية كنغرية[1] أصدرت أحكاماً بالإعدام، وحاولوا مراراً السيطرة على المراقد المقدسة، وأداروا عصابات إجرامية، وفجروا متاجر الخمور، مع أنهم كانوا غالباً مخمورين. وقد جعلوا أنفسهم مكروهين بشدة من قبل الطبقات الوسطى في النجف وكربلاء والبصرة وبغداد. كانوا يتبعون تكتيكات الفاشيين، فقد كان والد الصدر يوماً القائد الشيعي المختار لدى صدام، وكان كثير من الرجال حول ولده من البعثيين السابقين. وفي آذار 2004، قاموا بإزالة قرية للغجر في جنوب العراق عن الخريطة؛ لأن الشرطة العراقية الضعيفة لم تكن قادرة أو راغبة في منعهم (فقد كان رئيس شرطة البصرة وكثير من ضباطه من الصدريين أنفسهم) وسمحت سلطة الاحتلال لقوة الصدر أن تزداد دون مراقبة، بينما كانت تقدم لهم هدفاً يخدمهم أكثر كثيراً من هجماته على غيره من الشيعة. وفي تشرين الأول 2003، أعلن الصدر بإيجاز أنه يمثل حكومة العراق.

لم تكن سلطة الائتلاف المؤقتة تعرف ما يمكن أن تفعله حيال الصدر الشاب. فإذا اعتقلوه فستكون هناك ردة فعل، وإذا تجاهلوه فسيواصل حملته التخويفية. كان الصدر قد تخلى عن مجلس الحكم، لكنه كان الآن، حسب تعبير ليندون جونسون، قد خرج من الخيمة ليفسد فيها، ولم يكن لسلطة الائتلاف سبيل لمعرفة تحركاته، فكانت تفشل في اتخاذ القرارات أو تتخذ القرارات، -كما في الغالب- دون معلومات كافية. قال السفير هيوم هوران، صلة الوصل بين بريمر والشيعة، عن الصدر: «لو رآه والده لحزن. إنه ابن

غير متدين لأحد كبار رجال الدين، وهو يقوم بالدور دون أي مؤهلات. إلى ماذا يندفع؟ هل يظهر ذلك شعوره بعدم الكفاية؟» كان هوران الذي انتحر عام 2004 بينما كان يعاني مرض السرطان من كبار الكنيسة المشيخية، وهو ديبلوماسي متقاعد غريب الأطوار مولع بالكتب، وكان يقرأ رواية فرنسية من عشرة فصول في القصر. كان عمله في العراق هو التعرف على كبار رجال الدين الشيعة الأكثر اعتدالاً، وكان يدعوهم «هؤلاء الرجال الشعث». وقال: «أشعر كأنني عالم دراسات قديمة. إن الكلام مع رجال الدين الشيعة يبدو كحد جديد لمستعرب. إنهم لم يسَمموا بهذه التيارات المعادية للسامية التي كانت تحيط بغالب العالم السني. أظن أن نظرتهم للعالم الآخر أعطتهم بعض الوقاية من التشويش. أتمنى لهم الخير؛ فالبراءة تستحق استراحة بين حين وآخر». سألت هوران عن احتمال فرض الأغلبية الشيعية لحكومة دينية من الطراز الإيراني على العراق؟ فقال لي: «ليس هناك أدنى احتمال لذلك حتماً».

قرر بول بريمر أخيراً اعتقال الصدر، وأصدرت سلطة الائتلاف المؤقتة مرتين على الأقل أمر توقيف لموظفيها قبل تلك الخطوة، كما قال هوران: «لكن الماء كان ينحسر قبل أن يتجاوز حاجز البحر». كانت المعوقات تأتي من واشنطن، حيث كان الخوف من العنف الآني يتجاوز المكسب البعيد لفرض القانون وإزالة الخطر المتنامي، كما أخبرني عدد من مستشاري سلطة الائتلاف المؤقتة. كانت هذه إحدى الحالات التي قوضت فيها الحسابات السياسية المحلية لإدارة بوش ما كان مبعوثوها إلى العراق يحاولون القيام به. وقد أخبرني سير جيرمي غرينستوك، مبعوث طوني بلير إلى بغداد من أيلول 2003 إلى آذار 2004، أن بريمر «كان مقيداً بشدة من قبل واشنطن ذات الطموحات الكبيرة عن اتخاذ قراراته على الأرض». لكن حتى ديبلوماسي واسع الاطلاع مثل غرينستوك لم يكن لديه شعور كافٍ بامتداد أتباع الصدر. فقد قال لي في الأسبوع الأخير من شهر آذار، قبل أيام من أحداث نيسان: إن امتداد الصدر «قليل، وليس له تأثير سياسي».

لذا فقد بقي الصدر حراً، وبقي أمر الاعتقال مختوماً، إذ كانت الأموال تتدفق من مسانديه الإيرانيين، وحصلت ميليشياته على أسلحة ثقيلة. وسلم الأمريكيون سلطة المنطقة الجنوبية الوسطى لفرقة متعددة الجنسيات بقيادة بولندية، لكن مزيج البولنديين

والإسبانيين والسلفادوريين والبلغاريين والأوكرانيين كانوا أكثر فائدة في إثبات وجود التحالف في العراق من فائدتهم بصفتهم قوة أمن. ظهر فراغ في السلطة، وكان الأمريكيون يفتقدون القوات والإرادة لنزع أسلحة الميليشيات التي كانت تتنافس على ملئه - ليس فقط ميليشيا الصدر، ولكن أيضاً ميليشيات المنافسين في الأحزاب الشيعية الرئيسة- وكانت الإستراتيجية المتبعة هي بشكل أساس تمني الأفضل.

في الأول من نيسان، عاد مستشار سلطة الائتلاف المؤقتة للديمقراطية، لاري دايموند الذي يعمل بجامعة ستانفورد، إلى القصر في بغداد بعد رحلة إلى الحلة، حيث علم أن الأمن في الوسط والشمال الشيعي كان يتدهور بسرعة، وطلب اجتماعاً مع بريمر في مكتبه على انفراد. حذر دياموند بريمر من أن الوضع خطير، وحثه على تحويل خمسة آلاف من جنود البحرية من القوة التي وصلت حديثاً إلى محافظة الأنبار إلى المنطقة الجنوبية الوسطى فوراً للقيام بما كان من الواضح أن القوات متعددة الجنسيات لم تستطع القيام به.

كان الاجتماع في المساء، وكان بريمر يتناول طعام العشاء الذي برد في الصينية. وكان قد أمضى في العراق نحو أحد عشر شهراً يكافح أزمة تلو أخرى بتصميم ويبدو منهكاً. وحين رآه أحد مساعديه يخلع قميصه؛ ليلبس السترة المضادة للرصاص، كان صدر بريمر جلداً على عظم. قال بريمر لدايموند مختبراً: «لا أدري إن كنت قد لاحظت، لكن هناك حرب تدور في الغرب». لايمكن سحب أي من جنود البحرية من الأنبار. وحين أشار دايموند إلى الأمر الذي كان دوماً واضحاً -بأن القوات في العراق غير كافية، وهذا ما كان الجميع يعلمونه- ألمح بريمر إلى أن الحصول على مزيد من القوات غير ممكن سياسياً. فضغط عليه دايموند من جديد: على الأقل أرسل عشرين من جنود البحرية وعربتي همفي إلى الجنوب لحماية موظفي سلطة الائتلاف المؤقتة الذين ليس لديهم الكثير من الخبرة في مجال الأمن. أجاب الأمن: «ليس لدينا أي قوات إضافية»، إذا شعر أحد بعدم الأمان، فليعد إلى الوطن. لم يكن هناك المزيد ليقال.

ومن شهر كانون الأول إلى آذار -بين هجوم رمضان والتمرد على مستوى العراق كله- كانت سلطة الائتلاف المؤقتة تعمل وتتوهم أنها تحقق تقدماً حقيقياً. كانت تلك الأشهر هادئة نسبياً، حيث كان من الممكن للموظفين في القصر أن يعتقدوا أن مشروع تحويل

العـراق كان ينجـح. وفي منتصـف شهر تشرين الثـاني، تخلى بريمر، تحـت ضغط أسباب مختلفـة مـن البيت الأبيضـ وآية الله السيستاني عـن خطته ذات الخطـوات السبع لإعادة سيادة العراق. فمع انخفاض الدعم العراقي للاحتلال إلى أرقام لا تتجاوز العشرة بالمئة في استطلاعـات الرأي، كان من الواجب الإسراع بالانتقال، كما أن المطلب الأساس للسيستاني بكتابة الدستور من قبل هيئة منتخبة الذي تجاهله بريمر أشهرًا، يجب أن يتحقق. وقد أدت اتفاقية 15 تشرين الثاني التي كتبتها سلطة الائتلاف المؤقتة، ثم أرغمت مجلس الحكم على التوقيع عليها، إلى تسريع عودة السيادة إلى موعد محدد هو 30 حزيران 2004. وعندها يتم حـل كل من سلطة الائتلاف المؤقتة ومجلس الحكـم اللذين يرى معظم العراقيين أنهما غير فاعلـين ولا يمثلانهم. وسيتم تشكيل مجلس انتقالي، مختار عبر عملية مؤتمرات تحضيرية معقدة في جميع أنحاء العراق بحيث لا يستطيع حتى المسؤولون الأمريكيون تفسيرها، ليحكم العراق حتى موعد الانتخابات الوطنية في بداية عام 2005. وعندها تقوم الحكومة المنتخبة بكتابة الدستور الجديد.

كان مصـير معظم هذه الخطة في النهايـة كمصير المخططات الأمريكية السابقة؛ لأنها لم تكـن قـادرة على الاتصـال المطول بالواقـع العراقي. عارضـ السيستاني نظـام المؤتمر التحضـيري للأسباب نفسها التي أعاق من أجلها خطة بريمر السابقة: إنه لا يعتمد انتخاباً ديمقراطيـاً. وكمـا في السابق، تشبث بريمر ومساعـدوه في الحكم بالخطة شهـوراً قبل أن يستسلموا في النهاية. ثم طلبت إدارة بوش من الأمم المتحدة، بعد أن ظلت تبعدها طوال عام كامل، العودة إلى العراق في شخص الدبلوماسي الجزائري الأخضر الإبراهيمي للإشراف علـى الانتقال. كانت الولايات المتحدة ببساطة لا تملك الشرعية لإدارة العملية بنفسها. لكن بقـي شيء واحد مقدس من اتفاقيـة 15 تشرين الثاني: وهوالتسليـم في 30 حزيران. فجأة أصبح لسلطة الائتلاف المؤقتة تاريخ انتهاء صلاحية.

أصبح العمل الجاد في القصر يسير بوتيرة مسعورة. أمضت ميغان أو. سوليفان وزملاؤها أسابيـع من الوقت، وطاقة كبيرة، تناقش مع مجلس الحكم قانوناً انتقالياً يتم بموجبه حكم العـراق حتى يتم إقرار دستور ثابت. أصدر بريمر عاصفـة من الأوامر التي تشمل كل شيء مـن تسجيـل المنظمات غـير الحكوميـة إلى تعيين المفتشـين العامين في الـوزارات. وفتحت

obeikandl.com

سلطة الائتلاف المؤقتة مراكز للتدريب والموارد في أنحاء العراق لرجال الأعمال والعشائر والمجموعات النسائية والأحزاب السياسية. وجرت مئات «الحوارات الديمقراطية» في عشرات المدن والنواحي. وتدفق ضباط التعهدات على المنطقة الخضراء؛ للإسراع في إنفاق مبلغ الثمانية عشر مليار دولار المتبقية من مخصصات الكونغرس. وصف راي سالفاتور جينينغز، المتخصص في إعادة الإعمار بعد الحرب، مسؤولي سلطة الائتلاف المؤقتة الذين كان يعرفهم بأنهم أشخاص تحت الماء، يغرقون بفعل الضغط، وبأنهم معزولون ومنهكون: «إنهم يتحدثون إلى الجميع وإلى بعضهم عبر البريد الإلكتروني. وهم قلقون من أن الوقت ينفد». أما المسؤولون في واشنطن فقد وجدوا أن سلطة الائتلاف المؤقتة كانت تتحول إلى نوع من حكومة أجنبية تجمع القوة بيد شخص واحد، ليس لديه إجابات للإدارة، حتى إنه غير ملم بالعراقيين، ولا يزال يصر على أنه يعرف أكثر من الجميع. ووجوب فرض القرارين السياسيين للاحتلال اللذين يمكن تسميتهما نجاحاً -اتفاقية 15 تشرين الثاني وعودة الأمم المتحدة للمساعدة في الانتقال- على بريمر وسلطة الائتلاف المؤقتة من قبل روبرت بلاك ويل، المدعوم من قبل كيسنجر والسفير السابق إلى الهند والمعروف بسوء تعامله مع أتباعه، والذي تم تعيينه للعمل تحت إدارة رايس ومجلس الأمن القومي في منصب كبير الخبراء السياسيين بشأن العراق، في محاولة لكبح سلطة الائتلاف المؤقتة. كان سيل الأخبار من بغداد إلى واشنطن بطيئاً ومضللاً في بعض الأحيان، كما أن الخصومة المتبادلة ملأت المسافة بينهما. كانت أو. سوليفان، النجمة الشابة الصاعدة تحت إدارة ريتشارد هاس وبعده بريمر، تنتقد أحياناً في واشنطن لعجزها عن رؤية قلة أهمية مجلس الحكم للعراقيين، لعدم معرفة الكم الذي لا تعرفه. بدا أنها وغيرها من المسؤولين قد أصبحوا في أثناء السنة الطويلة التي أمضوها في القصر أكثر إيماناً بأنهم يحققون نجاحاً، وأصبحوا أقل تأثراً بالآراء المعارضة. ومع ذلك، كان العراق يتدهور طوال تلك المدة.

وفي شهر شباط تلقى براد سوانسون، وهو مصرفي في الخمسين من عمره يعمل في الاستثمار في فيرجينيا اتصالاً هاتفياً من صديقه القديم مايكل فلايتشر، شقيق آري فلايتشر، وزير الإعلام السابق الجريء والمتصلب في إدارة بوش. كان فلايتشر يعمل مع سلطة الائتلاف المؤقتة في مشروع تنمية للقطاع الخاص، وهو إنشاء سوق للأوراق المالية،

والحصول على استثمارات أجنبية، وعمل قروض للمشروعات العراقية. لكن كان لديه نقص شديد في الأيدي العاملة. فطلب من سوانسون القدوم إلى بغداد لمساعدته. كان سوانسون قد خدم في السابق في ليبرية في أوائل ثمانينيات القرن العشرين، وكان قد أجرى صفقات استثمار في جميع أنحاء العالم، لكنه لم يسبق له أن عمل في مكان كالعراق. وكان وسيماً، مفكراً يرتدي قمصاناً أنيقة، ولديه زوج وثلاثة أولاد وكلبان، وبيت قديم متنقل في ضاحية مخصصة لتربية الخيول قرب واشنطن. لم يكن بحاجة لقفزة يبدأ فيها مهنته، أو لراتب دون ضرائب، أو ليكسب أسهماً لدى الحزب الجمهوري، أو ليثبت شجاعته. لكن الطبيعة التاريخية لما كان يجري في العراق جذبته. رأت زوج سوانسون الإثارة في عينيه ولم تحاول أن تتحدث معه لتصده عن ذلك، لكن ولديه الأصغرين، اللذين كانا في الرابعة عشرة والحادية عشرة من العمر، كانا غاضبين وخائفين. قال لي سوانسون: «لو كنت ممن يقولون: سأضع راحة أسرتي وهدوءها فوق كل شيء آخر لما ذهبت».

منعت التأجيلات البيروقراطية سوانسون من الوصول إلى بغداد حتى منتصف شهر آذار. ووقع بسرعة في الإيقاع الشديد للقصر، وفي جو المهمة، والعمل ساعات طويلة سبعة أيام في الأسبوع، والخروج من المنطقة الخضراء في شاحنة صغيرة عادية للقاء رجال الأعمال العراقيين، في مخاطرة لا يستهان بها لكلا الفريقين، والتفاوض لإبرام اتفاقيات القروض. كان هناك حسن نية من كلا الطرفين بوصفه حاجة ملحة لتشغيل المصانع وتوظيف العراقيين. لكن مرت الأيام ثم الأسابيع، ولم يحدث شيء. وتم حصر المال من مبلغ الثمانية عشر مليارا، بما فيها جزء لقروض المشروعات، بقواعد الدولة للمشتريات، وقوانين التأمين لتعويض العاملين التي لم يكن لها معنى لدى العراقيين، والسباق بين الوكالات الحكومية المتعددة التي عمل موظفوها في سلطة الائتلاف المؤقتة. لم يكن سوانسون يعلم: هل كانت البيروقراطية عاجزة ببساطة على العمل بسرعة أكبر، أم أن إدارة بوش لا تريد أن تكسر كثيراً من القواعد؛ كي لا تخلق شعوراً بالاضطرار ربما يثير قلق الشعب حول حسن سير الأمور في العراق؟. لكن القرض الأول لسوانسون لم يصدر حتى أواخر شهر تشرين الأول 2004، أي بعد وصوله إلى بغداد بسبعة أشهر، وكان لصاحب مصنع ينتج زجاجات الماء البلاستيكية.

حتـى مع حرارة جهـوده، أدرك سوانســون أن سلطة الائتلاف المؤقتـة كانت تخفق. كان يتخيـل العراق مريضاً مستلقيـاً على طاولة وشرايينه مفتوحـة، والأمريكيون يضخون إليها الـدم بأسرع ما يمكنهـم، لكن الدم يتدفق للخـارج بالسرعة نفسها التـي يضخونه بها. في أوقات متأخرة من الليل، حول المسبح الذي خلف القصر، حيث كان الموظفون يستطيعون أن يجلسوا ويحتسوا الجعة ويرتاحوا، كان أحياناً يطرح الأسئلة الكبيرة -هل هذا يجدي حقًا؟ هـل لهذا كله معنـى؟- لكن نادراً ما كان يجـد مجيباً وسرعان ما كان يتراجـع: «أعتقد أن النـاس إما لا يريدون الاعتراف بذلـك، أو لا يستطيعون التركيز على أي شيء خارج بيئتهم المباشرة». كان التصميم على إنجاز العمل يتجاوز كل شيء آخر، ولذا لم يسأل أحد إن كان لسلطـة الائتـلاف المؤقتة شأن بكتابة قوانين للعراق تحدد ضريبـة ثابتة مقدارها 15 بالمئة، وإجـراءات المحاسبة الشفافة، وقوانين مصرفية وتجارية جديدة. «كانت نوعية دنيا الخيال التي يتم خلقها محببة جدًا. وكانت جميع هذه القوانين عظيمة، لكن لم يكن لها تطبيق على أرض الواقع».

استخـدم سوانسـون كلمة «التفكير الجماعـي» لوصف الجو العقلـي في سلطة الائتلاف المؤقتة: مجموعة العقول الموحدة التي تسيطر على أي مؤسسة مغلقة هرمية ذات قادة أقوياء وشعـور بالمهمـة المشتركة، حيث لا تلقى الأخبـار السيئة ترحيباً، ولا يريـد أحد أن يكون هو الـذي يطرح الأسئلة المقلقة. كان سوانسون قـد رأى التفكير الجماعي قبل ذلك في السفارة الأمريكيـة في ليبيريـة في بداية ثمانينيات القرن العشرين، حيث كانـت السياسة الأمريكية تدعـم عريفاً شبه أمي يدعى صموئيل دو الذي كان قد شق طريقه نحو السلطة بالقتل. وقد جس سوانسون نبض عدد من الليبيريين بشأن دو، فقالـوا جميعاً: إنه إذا استمرت أمريكة في دعمه وتسليحه، فإنه سيقود البلاد نحو الخراب. فأصر سوانسون الذي كان ديبلوماسياً شابـاً متحمسـاً في أول منصب له خارج البلاد أن هذا لا يمكـن أن يكون صحيحاً، فقد كان دو يتعلـم أن يصبح حاكماً جيداً، وكان صندوق النقد الدولي يأتي إلى البلاد، وكانت الأمور تتحسـن. لكن الليبيريـين كانوا على حق: وبعـد سنوات قليلة وقعت ليبيريـة في حرب أهلية مروعة دمرت البلاد ومعظم المنطقة، قال سوانسون: «وهذا شيء لن أنساه ما حييت».

أمـا في العـراق، فقد كان سوانســون أكبر سناً، وأبعد عن الموضـوع، ولذا فقد كان قادراً

على إدراك الإشارات الواضحة للتفكير الجماعي الذي انتقل ثمانية آلاف ميل من واشنطن، وسيطر على القصر في بغداد. كان مايكل فلايتشر، صديق سوانسون ومديره، مؤمناً حقيقياً. فاختلف الرجلان حول أسباب الحرب الدائرة: ففي رأي سوانسون، يقع جزء من اللوم على سلطة الائتلاف المؤقتة؛ لأن التمرد يتغذى على إخفاق الأمريكيين في إنفاق المال، وتحقيق توقعات العراقيين ولو بشكل جزئي. أما فيما يخص فلايتشر فقد كان الأمر أبسط من ذلك كثيراً. «كان يعتقد أن هناك متمردين؛ لأنه لا بد أن يكون في كل شعب عدد من الأشخاص السيئين، ذوي التفكير الدموي، الذين يعانون اضطرابات نفسية». لكن الاثنين بقيا صديقين مقربين، وعمل سوانسون من كل قلبه على الرغم من مخاوفه. لم يكن يفهم سبب إخفاق سلطة الائتلاف المؤقتة إلى أن غادر العراق في نهاية شهر تموز، وذهب مع عائلته لقضاء عطلة في إنكلترة، حيث كان يسير طويلاً في الريف، وبدأ يقر بالعبث الكبير فيما كان يحاول القيام به.

تكمن المشكلة في استكبار المؤسسة كاملة. قال سوانسون: «أُنشئت سلطة الائتلاف المؤقتة للقيام بتغيير البلاد من الجذور والفروع، ولم يكن هذا هو المطلوب قال سوانسون، كان المطلوب هو إصلاح أمرين أساسين هما: الأمن والاقتصاد. تم إنشاء سلطة الائتلاف المؤقتة؛ لتكون مؤسسة طويلة الأمد، من نمط ماك آرثر لإعادة تركيب المجتمع. وبعدها حين جاء القرار المفاجئ في تشرين الثاني بالتسليم في حزيران، لم تكن هناك متابعة لتقليل أنشطة سلطة الائتلاف المؤقتة والتركيز على أمر أو أمرين أساسين، بل استمرت هذه الآلة في العمل، وإيجاد هياكل جديدة وكأنها ستبقى هناك سنوات كي تنفذها. لكن تم إيقافها بعد ذلك، وانهارت الهياكل بفعل وزنها دون تأثير خارجي، حيث لم يكن هناك أساس حقيقي لها».

حين عاد سوانسون إلى فيرجينيا، جمع أفكاره في مقالة افتتاحية. وحين تم نشرها، أرسل نسخة منها إلى مايكل فلايتشر، فلم يصله رد، ولم يلقَ استجابة لمحاولاته العديدة للاتصال به. وأخيراً، استلم سوانسون رسالة مختصرة جدًا بالبريد الإلكتروني من صديقه القديم، قال فلايتشر: «إذا تحدثنا ثانية فلن يكون ذلك في وقت قريب».

في المنطقة الخضراء، كان الوضع كما لو أن فريق بناء كان يضع اللمسات الأخيرة بعناية

داخل بيت جديد دون ملاحظة المخربين الذين يتجمعون خارجه. كانت السياسة لعبة يتم أداؤها بعيداً عن نظر العامة. فمثلاً: كان القانون الانتقالي الذي وقع عليه خمسة وعشرون من أعضاء مجلس الحكم في أوائل آذار إنجازاً حقيقياً، يحتوي على قائمة تحررية بالحقوق والتسويات المكتسبة بصعوبة عن معظم القضايا المستعصية، كالحكم الذاتي لكردستان ودور الإسلام. استمرت المفاوضات الأخيرة طوال الليل، مع جلوس بريمر وبقية موظفي سلطة الائتلاف المؤقتة خلف الطاولة بصمت، بينما كان العراقيون يتجادلون حول آرائهم المختلفة.

لكن مجلس الحكم كان من إنشاء سلطة الائتلاف المؤقتة، وكان التفاوض معه (كما قال أحد نواب بريمر) كان: «كأنك تحدق في سرتك، ولم يكن لهم صلة بالعراقيين العاديين، ولم تكن هناك طريقة ليكسبوا أي صلة؛ لأنهم لم تكن لهم سلطة حقيقية». وبعد حفل التوقيع، أخذت الوثيقة خارج المنطقة الخضراء وقدمت على أنها أمر واقع إلى الشعب العراقي الذي لم يكن يعرف شيئاً عنها. حاولت سلطة الائتلاف المؤقتة الوصول إلى حملة علاقات عامة، لكن رد الفعل العام طغى عليها، وقد دعمته جزئياً الدعاية السلبية من مكتب آية الله السيستاني، الذي اعترض على حق النقض المؤثر الممنوح لمجموعات الأقليات على الدستور الدائم. ولم يكن من المستغرب أن الجلسات التي كان المسؤولون الأمريكيون والعراقيون يحاولون فيها شرح مضمون القانون، ويطلبون التعليق عليه، تحولت إلى شجب غاضب. جلست في اجتماع لمجلس منطقة في قصر كان لإحدى ابنتي صدام. اشتكى الناس في القاعة من أن الأكراد قد حصلوا على حقوق أكثر من العرب، وأن اليهود سيستخدمون القانون؛ ليعودوا إلى العراق، ويسيطروا على الاقتصاد، وأن القانون لم يتم شرحه في وسائل الإعلام، وأسكتوا اثنين من ممثلي مجلس الحكم. وأخيراً قال رجل يقف في القاعة في الخلف: «ألا تعتقدون أن عليكم وضع هذا الأمر بين أيدي العراقيين أولاً، ثم تقررون ما ستفعلون بالبلاد؟» فالقانون لم يأتِ من العراقيين أو من أحد اختاره العراقيون، كان هذا هو الاعتراض الفعلي. ضحت سلطة الائتلاف المؤقتة بالشرعية من أجل السيطرة، وانتهى بها الأمر أن خسرتهما معاً.

استفاد مقتدى الصدر بسرعة، حيث نظم احتجاجات يومية على القانون في ساحة الفردوس، وادعى العمل نيابة عن آية الله السيستاني الذي كان في الواقع المنافس الأساس

لـه على السلطة بين الشيعة. وازداد التوتر العرقي بشكل ملحوظ في البلاد. وحين ذهبت في أحد الأيام لرؤية بشير شاكر الطبيب الذي كان يعمل في المشرحة في بيته في مدينة الصدر، كان أخواه قد عادا للتو من مظاهرة اتهم فيها الأكراد بأنهم كفار وخونة.

قال د. شاكر: «ستكون القصة كما في لبنان حرب أهلية».

- العرب ضد الأكراد؟

- «هذا احتمال قوي».

- الشيعة ضد السنة؟

- «هذا ممكن. وسيكون الدستور نقطة الانطلاق، ثم ستتصاعد الأحداث بالتدريج».

- جيوش بأكملها تقتتل فيما بينها؟

- «هكذا أتخيل الأمر». التصور الأكثر احتمالاً حسب قوله كان حرباً أهلية بين الشيعة.

كانت تلك زيارتي الأخيرة للمنزل. فقد تلقى الطبيب تحذيراً من جيرانه التابعين لميليشيا الصدر من استقبال الأمريكيين.

لم يعـد القـرار الذي اتخذ بتاريـخ 28 آذار، بإغلاق صحيفة الصـدر ستين يوماً، مهماً بما فيه الكفاية للموافقة عليه من واشنطن أو حتى إشراك بريمر فيه؛ فقد كان كبير نواب بريمـر، السفير ريتشارد جونز، ومستشاره القانوني، سكوت كاسل، يتبعان ببساطة سياسة سلطـة الائتلاف المؤقتة ضـد التحريض. وقد أُقفت صحف أخرى لأعمـال أقل. وإذا سُمح لصحيفة الحوزة التي نشرت قوائم بأسماء «المتواطئين» واتهمت الجنود الأمريكيين بضرب المساجـد بالصواريخ عمداً، واتهمت بريمر نفسه بتجويع العراقيين، بمواصلة النشر، فهذا يعني أن سلطة الائتلاف المؤقتة تُميز في تعاملها بين الأطراف المختلفة.

لم يبـدُ أن أحداً قد توقع العواقب. فحين خرج جيش المهدي إلى الشوارع، كان بريمر في انتظـار خطة عمليـات من الجيش لتحييد الصدر وأتباعه. ولم يكـن بالحسبان أن الصدر تُـرك حراً ليقـود الثورة، وبعـد أربعة أيـام، في صلاة الجمعـة في مسجـده بالكوفة، قرب

النجـف، حث الصدر المؤمنـين على الثورة ضد الاحتلال وضرب الإرهاب في الصميم. وفي اليوم اللاحق، 3 نيسان، أخبر الجنرال سانشيز بريمر في اجتماعهما الصباحي بأن جنوده سيعتقلـون كبير مساعدي الصدر، مصطفى اليعقوبي، في اليـوم نفسه في النجف اعتماداً على مذكرة اعتقال معلقة في قضية قتل الخوئي (أما أمر اعتقال الصدر فقد بقي مختوماً، لكـن الجيش كانت لديـه أوامر بوضع المذكرات الأخرى قيد التنفيـذ). قال بريمر: حسناً، وكان بعض الأشخاص في الاجتماع يظنون أن اليعقوبي كان من المشاركين في القاعدة.

لم يتـم التفكير في إغلاق الصحيفة واعتقال اليعقوبي والتنسيق، ضمن سلطة الائتلاف المؤقتـة، أو بـين بريمـر وسانشيز، أو بـين بغداد وواشنطـن. وأشعل اعتقـال اليعقوبي ثورة جماعيـة، مـن الواضح أن الصدر كان قد خطط لها مسبقـاً، وذلك طلب مباشر بالحصول على السلطة من قوات الاحتلال. بدأ رجال ميليشيا جيش المهدي يتدفقون من مدينة الصدر إلى المدن الشيعية في جنوب العراق، وأثناء أيام قليلة اكتسحوا مكاتب سلطة الائتلاف المؤقتة في الكوت والناصرية، حيث لم يستطع الأوكرانيون والإيطاليون المحافظة على أماكنهم. وكان الإسبانيون في النجف والبلغاريون في كربلاء سيُكتسحون أيضاً لو لم تسرع القوات الأمريكية لتعزيزهـم. ثبـت أن الفرقة متعددة الجنسيات كلها عبارة عن جيش من ورق لا يكافئ آلاف رجـال الميليشيا الشيعة غير المدربين والشجعان لدرجـة الحماقة، إذ كانوا يقاتلون في أرض مكشوفة بأسلحة مثل AK - 47 وأر. بي. جي.

في اللحظـة ذاتهـا، انفجـر التمرد السنـي المزمن في محافظـة الأنبـار ليصبح معركة كاملـة. صدم تشويه المتعهدين الأربعة الأمريكيين مـن شركة بلاك ووتر في 31 آذار الشعب الأمريكـي. وفي البيـت الأبيض، صرح الرئيس بوش: «أريـد أن تتدحرج الرؤوس». كان ذلك رد فعـل مندفعاً، قائماً على تأثير الصور الآتية من الفلوجة في المستوى المحلي، وكأن العراق ساحـة مبارزة يراهـن فيها على الكرامة الشخصية (كمـا كان رد بوش على المرحلة الأولى مـن التمرد هو أن قال: «أحضروهـم إلي»). كان المسؤولون في بغداد يطلقون على هذا النوع مـن الإصلاح بعيد المـدى «مفك ثمانية آلاف الميـل»، وفي الطرف الآخـر كان الرئيس الذي كان يقـول غالبـاً: إن الدرس المستفاد مـن فييتنام هو أن السياسيين يجـب ألا يقوموا بعمل الجنرالات. صدر الأمر بالتسلسل من القيادة العليا إلى الفرقة البحرية الجديدة في الأنبار

obeikandi.com

بمحاصرة الفلوجة التي تركت أسابيع دون حراسة من قبل الوحدة الثانية والثمانين المحمولة جـواً، وبإعادة السيطرة عليها واصطياد قاتلي المتعهدين. وقد قال قائد القوة الاستطلاعية البحريـة الأولى، الجـنرال جيمس كونـواي، فيما بعد: إنه لم يكن سعيـداً بأمر الهجوم على المدينـة كاملـة انتقاماً لمقتـل أربعة أشخاص، فقد أتـت القوات البحريـة إلى الأنبار لتهدئة المحافظة الثائرة بلمسة أنعم وألطف من الفرقة الثانية والثمانين، وأراد كونواي التعامل مع الأزمة بعمليات ذات أهداف محددة. كذلك عارض بريمر، حسب قول مسؤول في واشنطن، لكن رامسفيلد أهمله، وذهب طلب بريمر الذي قدمه إلى بوش هباءً.

ازداد كونـواي انزعاجـاً حين جـاء أمر من البنتاغـون بالتوقف بعد ثلاثـة أيام من بدء الهجـوم، ومع اقتراب قوات البحرية من مركـز المدينة في قتال عن قرب. كانت تقارير غير مؤكـدة في قنـاة فضائيـة عربية عن مقتل مئـات المدنيين في الفلوجة تشعل الـرأي العام في جميـع أنحاء العراق والمنطقة، وقد قـال الأخضر الإبراهيمي، الممثل الخاص للأمم المتحدة في بغـداد: إن مهمتـه كانت توشـك على الانهيار، كمـا أن عدداً من أعضـاء مجلس الحكم هـددوا بالاستقالة. أوجد القتال في الفلوجة، الذي امتـد إلى الرمادي، للمرة الأولى تحالفاً بين السنـة والشيعة ضد الأمريكيين. ونظمت المساجد الشيعية حملات للتبرع بالدم وقوافل مساعـدات للمحاصرين في الفلوجـة، وظهرت صورة الصدر في المساجـد السنية. كما كان هنـاك بعض التنسيق التكتيكي بـين المقاتلين. بدا معظم العـراق الآن في ثورة مفتوحة ضد الاحتـلال. كانت الأمم المتحدة تخوض حرباً علـى جبهتين دون قوات كافية، وفي الأسبوعين الأولين من نيسان، بعد سنة من نهاية العمليات القتالية الكبرى، قتل ثمانية وأربعون جندياً.

في النهايـة انسحبت قوات البحرية من الفلوجة، وتم تسليم المدينة إلى فريق من الجنود العراقيـين السابقين يدعى لـواء الفلوجة، فسرعان ما خسر السيطـرة لصالح التمرد، وفي بعض الأحيان كان يذهب إلى الطرف الآخر. كانت فكرة لواء الفلوجة للجنرال كونواي: ولم تتم استشارة سلطة الائتلاف المؤقتة. وبقيت الفلوجة إقطاعية تشبه طالبان ومركز عمليات لأكـثر الجهاديين عنفاً في العراق، سواء من الأجانـب أو المحليين، حتى وصول فرقة جديدة من البحرية واستعادتها للمدينة في الهجوم الأمامي في شهر تشرين الثاني. وفي وقت قصير طردت القوات الأمريكية والعشائر المسلحة ميليشيا الصدر من الكوت والمدن الأخرى، وتحت ضغط من رجال الديـن والسياسيين الشيعة، أعاد الصدر السيطرة على المدن المقدسة إلى

الشرطة العراقية. لكن جيش المهدي لا يزال مسلحاً ومن المستبعد إنهاؤه. وتطلب الأمر جولة ثانية من القتال في النجف ومدينة الصدر، وتدخلاً من السيستاني، وبعدها بداية لمفاوضات جادة ومشروعات إعادة إعمار؛ لإقناع الصدر بإنهاء التمرد الشيعي والمشاركة في السياسة العراقية، وكان هذا نجاحاً إستراتيجياً نادراً لأمريكة في العراق.

قال مسؤول في سلطة الائتلاف المؤقتة بعد نجاته من معارك إبريل في الجنوب: «ستة أشهر من العمل اختفت تماماً ليس هناك ما نظهره»، فقد سمحت الإدارة في واشنطن للعراق بأن يصبح متفجراً باستهتار وارتباك وجهل تام، وبعد ذلك قامت بتفجير المفجرين.

انهارت مصداقية سلطة الائتلاف المؤقتة في أثناء أعمال العنف التي جرت في نيسان وأيار. كان المتحدثان المدني والعسكري، وهما جمهوري يدعى دان سينور، وعميد اسمه مارك كيميت، يقفان في المؤتمرات الصحفية اليومية في مركز المؤتمر، ويصدران تصريحات حول تاريخ مذكرة اعتقال الصدر ونوايا التحالف تجاه المتمردين التي كانت عادة مختلفة عن الحقائق، فأحياناً غير صحيحة بشكل ظاهر، وغالباً متناقضة مع تصريحات اليوم أو الأسبوع السابق، وكانا طوال الوقت يصران على أن السياسة الأمريكية ثابتة وأن العنف متقطع وثانوي وتحت السيطرة. كان سينور وكيميت يكرران فقط التأكيد الأخرق الذي يأتي من البيت الأبيض والبنتاغون في وسط الحملة الانتخابية، لكن كلماتهما كانت لها نبرة المهزلة في بغداد، ولم تخدع الجمهور الأكثر أهمية، أي: العراقيين.

أصبحت فضيحة تعذيب السجناء التي كانت قد بدأت قبل أشهر، ولكنها انفجرت علناً في أوائل شهر أيار، بينما التمرد لا يزال يغلي، صورة مصغرة لإخفاقات أكبر. كان بريمر يعلم بخرق نظام السجن منذ وقت، لكن أحد المسؤولين الذين كانوا يعملون في موضوع المحتجزين أخبرني أن سانشيز والجيش قاوموا باستمرار محاولات سلطة الائتلاف المؤقتة للحصول على معلومات حول السجون أو إطلاق سراح سجناء معينين. كان الموقف كما يلي: هذا عملنا، نحن نعرف ما نقوم به، ابقوا خارج الموضوع. لم يظهر بريمر علناً أن القضية تقلقه، وكان العراقيون، بمن فيهم أولئك الذين لم يستطيعوا معرفة شيء عن مصير أفراد عائلاتهم، يعتقدون أن اللوم يقع على الاحتلال كاملاً والحقيقة أن هذا كان صحيحاً. كان

بريمـر وسانشيز، كبير المدنيين وكبير العسكريـين في العراق، كما قال مسؤول في واشنطن: «يكرهان بعضهما بكل معنى الكلمة، فقد كان جيري يعتقد أن سانشيز أحمق، وكان سانشيز يعتقد أن جيري وغد مدني يقوم بإدارة مصغرة». لذا سمحت سلطة الائتلاف المؤقتة للطخة التي كانت تلوث سمعتها أن تنتشر وتدوم.

كتـب إلي جندي لم يرَ أن التعذيب ذاته مـروع في أيار: «ما هو الاختلاف الأخلاقي بيننا وبـين صـدام؟ واضح أن الفرق كبـير، على ما أعتقد، لكـن المشكلة هـي أن أولئك الذين لا يعرفـون أمريكـة لن يروا الأمر بهـذا الشكل. لقد جعل ذلك عملنا يتراجـع كثيراً، وهذا هو العـار الأكبر إن كنت مثلنـا وكنت تريد رؤية العراق ينجح. هذا هو الجزء المحزن، تأثيره في الآخرين جميعاً، وليس ما حدث بالفعل».

اتضح مع الوقت أن المسؤولية الرئيسة تقع في واشنطن والبنتاغون ووزارة العدل وأخيراً البيت الأبيض. فلم تدع المذكرات التي كتبها مستشار الرئيس ألبرتو غونزاليس وغيره حول التعذيـب واتفاقيات جنيف بدءاً من الإساءات. قال مسؤول في الإدارة الأمريكية كان قد عمل في فييتنـام: «ليس لدي شك بوصفي جندياً أن جزءاً من مسؤوليـة «أبو غريب» وأفغانستان يقع على عاتق وزير الدفاع ورئيس الولايات المتحدة. هناك حكمة تقول: اجعل الأمر بسيطاً، أيهـا الغبي. لديك دائماً شخصيات في لباس موحد -كان لدي منهم في فييتنام- يستفيدون مـن أي غموض، وأي عـدم وضـوح في قواعد الاشتبـاك، ويقتلـون النـاس؛ أو يقومون بما تمليـه عليهم أنفسهم. ليس هنـاك قواعد للناس الصالحين. هنـاك قواعد لخمسة أو ستة بالمئـة من وحدتـك القتالية التي ستصبح غريبة. أنت بحاجة لأولئـك الناس؛ لأنهم يكونون أحيانـاً أفضـل القتَلة. لكنك بحاجـة للقواعد، وحين تقوم بأي تغيير فيهـا، أي تراخٍ أو حتى إشـارة إلى ذلك، فإنك تفتح صندوق الشرور. وأنا أحمل الخطأ لغونزاليس والرئيس ونائب الرئيس، ووزير الدفاع وسلسلة القيادة والمحافظين وأبي زيد وسانشيز، إنه خطؤهم جميعاً».

احتفظ هؤلاء الرجال جميعاً بوظائفهم. حتى إن أحدهم حصل على ترقية. وأكد العجز عـن جعـل أي أحد في السلطـة يتحمل المسؤوليـة أن طرق التحقيق غـير الأخلاقية وعديمة القيمـة، مـن وجهة نظـر تطبيقية، ستستمـر. وحتى بعـد أن رأى العالم الصـور من سجن «أبوغريب» ظل السجناء يلقون التعذيب في المعتقلات الأمريكية.

أظهرت أحداث نيسان وأيار 2004، أن لا أحد كان يتخذ القرارات على أساس إستراتيجية واقعية واضحة. لم يكن أحد مسؤولاً فعلاً عن العراق. كان بريمر يتصرف دون استشارة واشنطن، واستمرت واشنطن بالتدخل للسيطرة على بريمر، وكان البنتاغون لا يزال يتعارك مع وزارة الخارجية ومجلس الأمن القومي، وكانت عين البيت الأبيض على المفكرة السياسية، وكان بريمر وسانشيز لا يكادان يتحدثان، وترك سانشيز قادة فرقته يتبعون تكتيكات مختلفة بشكل كبير. وحين كانت الأمور لا تسير على ما يرام، كان الخطأ يلقى على شخص آخر -جندي مضطرب العقل، أو الفرق الصحفية، أو العراقيين-. وظهر أن العراقيين لديهم أفكارهم الخاصة حول مصير بلادهم. قال مسؤول في سلطة الائتلاف المؤقتة، وهو يتذكر: «كانوا يحتاجون إلى شخص مسؤول في واشنطن وشخص مسؤول في بغداد، وكانوا بحاجة أن يكون هذان الشخصان توءمين، بمعنى أن يكونا على موجة واحدة فعلاً. كان رامسفيلد يغسل يديه من الموضوع، كما بدا. ومع الوقت ازداد تعامل جيري مع رايس وباول. ولسوء الحظ، في ذلك الوقت كان التمرد قد انفجر كاملاً».

أخر القتال انتشار خمسة وعشرين ألف جندي شهرين أو ثلاثة. ورفضت خطة تخفيض مستويات القوات إلى 115. 000 جندي؛ لأن التحالف كان عليه أن يرتجل مرة أخرى. تمت إعادة القوافل المغادرة من الجنود المنهكين على الطريق إلى مطار بغداد الدولي. وأرسلت الفرقة المسلحة الأولى من بغداد إلى النجف وغيرها من مدن الجنوب لتحل محل القوات متعددة الجنسيات التي تم اكتساحها. وبعد أسابيع قليلة من مغادرة جون بريور وزواجه في عجالة، عاد إلى العراق.

انتهى المطاف بكتيبة بريور إلى قاعدة في مصنع دجاج سابق، يقع على بعد عشرين ميلاً إلى جنوب بغداد قرب مدينة قذرة تدعى المحمودية. سجل بريور في سجله الحربي لشهر نيسان 2003 أن آلاف العراقيين المبتهجين احتشدوا في الطريق الرئيس في المحمودية حين حررت فرقة تشارلي المدينة في طريقها إلى بغداد. وكانت المنطقة تسمى الآن مثلث الموت. وكانت المدينة خليطاً من السنة والشيعة، لكن الجزء الأكبر من الأراضي الخارجية كان سنياً، وكان فيها عدد كبير من الضباط السابقين في الحرس الجمهوري يعيشون في بيوت بناها النظام السابق بعد عام 1991 لإنشاء خط دفاعي كثيف بين بغداد والجنوب الشيعي.

كانت المحمودية تعج بمصانع الذخيرة التي نُهبت بعد الغزو، وكانت الآن مسرحاً لتفجيرات مستمـرة على الطرقات وتفجيرات سيـارات انتحارية. اقتحم أحد مفجري السيارات نقطة تفتيش وفجـر ثمانيـة جنود في تفجـير كان من القوة لدرجـة أن عجلة القيـادة وقعت على بعـد مئتي قدم، وعطل عربـة برادلي تزن ثلاثين طناً. كانت هجمـات المتمردين على رجال الشرطـة والحجاج الشيعة المسافرين إلى المدن المقدسة تزداد، وكانت المحمودية أيضاً ذات سمعة سيئة لإطلاق النار على الصحافيين، وغيرهم من الأجانب على الطريق الذي يمر في وسـط المدينـة. وكانت قذائف الهاون والصواريخ توجه إلى مصنـع الدجاج كل ليلة تقريباً. وأمضـت فرقة تشارلي الشهـر الأخير من الأشهر الخمسة عشر التـي قضتها في العراق في مكان كئيب معادٍ.

ذهبـت إلى هنـاك لرؤية بريور في منتصف شهر حزيـران. كان الطريق السريع رقم 8، القـادم مـن بغداد، مغلقاً بسبـب ازدحام السير المدني، وكان قسم مـن الطريق، وهو جسر فوق قناة، قد فُجر مؤخراً. ولم يخفِ الجنود الذين كانوا يرافقونني إلى القاعدة مشاعرهم حـول بقائهـم المطول في العراق. قال عريف شاب كان قد أمضـى كل يوم من أيام الاحتلال في العـراق: «تعاطفـت مع العراق حين أتينـا إلى هنا في البداية، لكننـي الآن بارد المشاعر، ولا أشعـر بالنـدم. حين ترى بعض أصدقائك يُقتلون، فإنـك تتغير» فسألته إن كان يميز بين العراقيـين الجيدين والسيئين؟ «كيف يمكنك التفريق بينهم؟ الشخص الذي يلوح لك يمكن أن يطلق عليك نيران RPG».

وفي القاعـدة سمعـت الـكلام نفسه مـن كل جندي تحدثـت إليه تقريبـاً. كان شعورهم بالمـرارة يتجاوز العراقيين إلى سلسلة القيادة. فقد كانـوا يكرهون رامسفيلد الذي أرسلهم إلى هنا دون عدد أو عُدد كافية، ثم مدد انتشارهم عدة مرات، بشكل خاص، وحتى الرئيس لم يكـن يحظى بشعبية، قال عدد من الجنود: إنهم ينوون انتخاب جون كيري الذي خدم في فييتنـام علـى الأقل. كان كل منهم لا يزال يقـوم بعمله، لكن لم يكونـوا يعملون من قلوبهم، وسـاد جـو فاسد من التهكم، بينما كان الجنود ينتظرون الأوامـر؛ ليغادروا. وبعد العلاقات الوثيقـة التي كونها بريور وجنـوده مع مترجميهم في الزعفرانية، بـدا أن هناك تطوراً غير

جيد لدرجة أنهم كانوا يفصلون الحمامات المتنقلة في القاعدة في المحمودية بين الجنود الأمريكيين والعمال العراقيين. كان الأمريكيون يشتكون من أن العراقيين يكسرون المقاعد بالجلوس عليها. وكانوا يقولون: إن العراقيين بعد آلاف السنين من الحضارة مازالوا لا يعرفون كيفية استخدام كرسي الحمام.

أمضيت عدة ليالٍ في القاعدة. في الليلة الثانية مرت قذيفتا هاون فوقنا، وانفجرتا في مكان ما قرب السور، لكن فيما عدا ذلك كانت زيارتي للمحمودية هادئة. وفي صباح أحد الأيام خرجت مع دورية في قافلة مكونة من عربتي برادلي وعربتي هامفي مصفحتين (في الزعفرانية، كانت عربات البرادلي التي تزن ثلاثين طناً تبقى في القاعدة، لكن هنا لم تكن أي دورية تخرج دونها). كان قائد عربة الهامفي التي ركبت فيها، العريف سكوت ماك كيسن، قد رأى ابنه مدة لا تزيد على أربعة عشر يوماً في حياة الطفل الذي بلغ عمره أربعة عشر شهراً. وجندي آخر كان قد ألغى زفافه ثلاث مرات. كان ماك كيسن، وهو رجل أشقر حسن الطباع في الحادية والثلاثين من عمره من مدينة صغيرة في أوتوا، لا يزال يبذل وسعه لإتمام مهمته، وكان يلوح للمشاة على الطريق الرئيس، فكانوا يرفضون بحزم أن يلوحوا له. لم يكن معظم الناس ينظرون إلى العربات المسلحة بالأسلحة الثقيلة التي تتثاقل في مدينتهم، لكن النظرات القليلة كانت صعبة؛ لم يكن أحد يبتسم، حتى الأطفال.

قال ماك كيسن: «أصعب الأمور هو التعامل مع هؤلاء الناس بكرامة واحترام؛ لأنني لم ألتقِ بشخص يمكن الثقة فيه حتى الآن. نحن نعلم ما سيفعلون لو وضعوا أيديهم علينا. كما أن التعب الذي سببه وجودنا هنا مدة طويلة ورغبتنا في العودة إلى ديارنا لا تجعلنا نريد أن نكون ودودين. أعتقد أن المعركة الكبرى هنا هي مجرد محاولة التعامل بود مع هؤلاء الناس. عليك أن تحاول -فهذه هي الطريقة الوحيدة لمحاربة القتال- إقامة حكومة ديمقراطية. لن ينجح الأمر إذا كنت تطلق النار عليهم فقط. لقد عاشوا بهذه الطريقة منذ قرون. فهل يمكن تغييرها في سنة؟ كل ما تستطيع فعله هو المحاولة».

في الجهة الجنوبية من المدينة سقط إطار إحدى عربات البرادلي، ووقفنا في الطريق في حرارة الصيف، والجنود يلوحون لتحريك الهواء، وهم يحملون بنادقهم في وضعية

الاستعداد، بينما استلقى الميكانيكي على الأرض القذرة وبيده مفتاح. بدأت محادثات متقطعة مع عراقيين كانوا يمرون أمامنا، وسررت لمعرفة أنني لن أبقى وحدي أكثر من ثوانٍ قليلة. وبعد ذلك، سمعنا بجهاز اللاسلكي أن سيارة مفخخة تجول بالمنطقة. وبعد ساعة انتقلنا فيما لفت نظري دورية محترفة، وأسرعنا على امتداد الطريق السريع جنوب المدينة، حيث كانت المتفجرات محلية الصنع كثيرة بشكل خاص. كان ماك كيسن ينظر بشدة إلى كل كومة نفايات أو كلب ميت على جانب الطريق. كانت الأرض مستوية والريح تحمل الغبار، وكانت خطوط أشجار النخيل تمتد عن بعد، وزهور دوار الشمس تذوي على سوقها.

توقفنا عند مسارات السكك الحديدية، قرب قناة زرعت بالبردي. كان جزء من الطريق قد نسف في مكان قريب من هنا قبل أسبوعين. وكان ثمانية حراس عراقيين وحيدين يحفرون خندقاً في الأوساخ الموازية للسكك. توقف الأمريكيون وأرادوا الحديث، لكن لم يكن معهم مترجم. حاول أحد الجنود أن يشرح للحراس: «فكرة جيدة، لكنه يقابل الطريق الخطأ. أنتم تحتاجون أن تتوجهوا نحو الطريق».

كان المنظر مثيراً للشفقة؛ فقد استغرق حفر النفق كثيراً من الجهد والعرق، لكن التعزيزات من أكياس الرمل والخشب المعاكس وضعت بجانب شيء لا قيمة له. كان الرجال يبدون هزيلين ومسنين للقيام بهذا العمل، بعضهم كان أشيب الشعر، وكانوا يرتدون قطعاً مختلفة من الملابس العسكرية، وبعضهم لا يرتدي أحذية نظامية، ولم يكن أي منهم يرتدي سترة واقية من الرصاص. كانت حمايتهم الوحيدة هي أسلحة AK - 47. وكان المتمردون يملؤون المنطقة، وفي أثناء أسابيع قليلة سيُقتل هؤلاء الحراس أو أمثالهم بالجملة في هجمات يومية لا يملكون تجاهها وسيلة للدفاع عن أنفسهم.

كان ماك كيسن على اللاسلكي في طريق العودة إلى القاعدة يضحك على مواقع القتال الجديدة. وشرح عراقي بالإشارات أنه قد حدث إطلاق النار على وحدة قريبة قبل دقائق. قال ماك كيسن: «لست مستغرباً، هذا يحدث في الغالب».

رفع الأمريكيون أصابع الإبهام في إشارة لنظرائهم على أنهم قاموا بعمل رائع، وتوجهوا عائدين إلى القاعدة. وتابع العراقيون الحفر.

في تلك الليلة تناولت عشاء من الوجبات الجاهزة حول طاولة في مركز العمليات التكتيكية الذي تديره فرقة تشارلي، مع بريور وملازمي فرقته والنقيب الجديد. كان مارك لاهان قد عاد إلى ألمانية، وأفصح لي بديله كارل ويذيوينغتون، وكان في التاسعة والثلاثين من عمره عن رأيه في الناس الذين جاء الأمريكيون لتحريرهم قبل خمسة عشر شهراً: «أتى عراقي إلي وقال: إن انتظار الازدحام المروري العسكري يزعجهم. فقلت له: إن لم تفجرونا بالسيارات المفخخة، فسنترككم تمرون».

كان الناس الجالسون حول الطاولة، من مدن صغيرة في جورجيا ومينسوتا ونورث كارولينا، جميعهم يشاركونه الرأي: فبعد العمل هنا أكثر من سنة استنتجوا أن العراقيين غير جديرين بالثقة، ولا يقولون الحقيقة، ولا يستطيعون التفكير بعقلانية، ولا يظهرون أي مبادرة. توصل بريور بعد تردد للاعتقاد بأن الدين، ومعاملته للنساء وجبريته واسعة الانتشار، كان عقبة مهمة في وجه الديمقراطية في العراق، وأن الأمر سيتطلب سنوات وسنوات. بعد أن يترك قيادة سريته سيذهب للدراسة سنة في زمالة للجيش في مدرسة هارفارد كينيدي الحكومية، وتخيل أن بقية الطلاب سيظنون أنه عنصري يميني إذا تجرأ على ذكر هذه الدروس القاسية التي تعلمها.

قال ويذيرينغتون: «في أثناء حرب فييتنام، كان الأمريكيون ضد الجنود وضد الإدارة، أما هنا فعلى الأقل الشعب يؤيد الجنود، وإن كانوا لا يؤيدون الإدارة».

قال بريور: «على الرغم من أن هذا يختلف عن موضوع أبو غريب»، فحين كان في بوسطن في شهر نيسان، رأى مظاهرات ولافتات أحبطته.

قال ويذيرنغتون: «لقد سئمت القراءة عما فعله خمسة أشخاص لحفنة من العراقيين الأوغاد» في أحد الأيام بينما كان يسير في قافلة في المحمودية، كان الأطفال مصطفين في الشوارع يحملون صحفاً تظهر صوراً من سجن أبو غريب. «أعني أن ما قاموا به كان خطأ. لكنه لا يمثلنا».

وقال بريور: إننا إذا قسنا على ذلك ما حدث في أبوغريب، فإن تشويه المقاولين في الفلوجة يمثل العراقيين. و«سيكون من اللطيف أن نعرف الشعب الأمريكي أن سبب المشكلات هنا

ليس فقط نقاط الضعف المتعلقة بثقافة الأمريكيين، وإنما نقاط الضعف المتعلقة بثقافة هؤلاء الناس أيضاً». وأضاف: «يمكننا تغيير ثقافة. علينا أن نعتمد ذلك، ونعتمد عليه، ونعتمد عليه. يريد الأمريكيون أن ينتهي الأمر في أثناء ثلاثة أشهر. إذا كان الناس يقتلون، فتباً لذلك. وهذه نقطة ضعف ثقافية».

جلس ويديرينغتون يتأمل: «أكره هؤلاء الأوغاد. المسلمون لا يستحقون. أنا لا أهتم بالعراقيين هذا حسن، لكنهم مسلمون».

قال بريور بأسلوبه الجامد: «العريف يقصد أن هناك كثيراً من التحديات التي تعوق فهمنا لبعضنا».

كان الجنود في فرقة تشارلي يفتخرون بما قاموا به. وقد أخبرني عريف اسمه جيمس جيت أن ضبط النفس والاحترام الذي أظهرته السرية، مقارنة بالوحدات الأخرى التي استخدمت تكتيكات أكثر قسوة، كانا الطريقة المثلى لكسب العراقيين الذين لا يزالون على الحياد. كان هذا هو الشيء الأهم للفوز بالحرب، وليس تحويل الأصدقاء أو الحياديين إلى أعداء. كان ذلك أهم من القبض على الأشرار. كان بريور سعيداً أنه في أثناء سنة الاحتلال لم يقتل من جنوده إلا واحد، وأن اثنين فقط اضطروا لإطلاق النار على العراقيين. وحين كنا وحدنا فيما بعد، ذكرته بالحديث عن الدليل والطريقة المناسبة التي كنت قد سمعته يقدمها قبل نحو سنة في محطة الوقود في الزعفرانية. وافترضت أنه لن يقدمها الآن في نهاية جولته الطويلة.

هز بريور رأسه. «في أعماق قلبي، أؤمن أن الجميع أمريكيون. أنا مثالي تماماً، جورج، كل ما قلته لك في شهر آب، لم يتغير منه شيء. ازداد إحباطي من الشعب العراقي. لكن موقفي في الرغبة في إصلاح هذا المكان لم يتغير. لا أستطيع أن أتخلى عنهم لمجرد أنني محبَط. مازلت أقول ذلك الخطاب حتى اليوم». لكن بريور قال: إنه لن يقوم بإخبار العراقيين بما أخبرني به الليلة؛ لأنه لا يريد أن يخسر ثقتهم. «كل ما أخبرتك به في شهر آب كان من قلبي، لكنني محبط؛ لأنهم لم يعودوا (أشخاصاً لطفاء) في نظري. لكنني مازلت أحب بلادي. وما

زلت أؤمن بالخدمة العامة، ومازلت أريد خدمة أمتي، وجزء من خدمتي لأمتي أن أخدم الأمم الأخرى».

في نهاية شهر حزيران عدت إلى بغداد لحضور تسليم السيادة. تم ذلك في حفل صغير في المنطقة الخضراء قبل يومين من الموعد المقرر، في 28 حزيران، ودون إعلان؛ لتفادي أي هجمات. وبعد الحفل أسرع بول بريمر وكبار مساعديه إلى المطار، وغادروا العراق. كانت النهاية المفاجئة لسلطة الائتلاف المؤقتة متوافقة مع حياتها القصيرة.

وكانت الحكومة الانتقالية لرئيس الوزراء إياد علاوي، التي كان المفروض أن يختارها فريق الأمم المتحدة برئاسة الأخضر الإبراهيمي، هي في الواقع صفقة بين واشنطن ومجلس الحكم، وبمباركة آية الله السيستاني. بدا أن الشعب مستعد أن يعطيها فرصة. في يوم واحد قبل التسليم بأيام قليلة، مات مئات الأشخاص على الأقل في أنحاء مختلفة من العراق. أصبحت التفجيرات والاغتيالات جزءاً من الحياة اليومية، وأي تغيير يمكن أن يكون نحو الأفضل.

زرت عدة مكاتب حكومية ووجدت العراقيين مصممين على تولي المسؤولية الجديدة التي اعتقد معظمهم أنها كانت يجب أن تكون مسؤوليتهم منذ البداية. كان كل مسؤول وكل وزير وكل شرطي يخاطر بحياته لمجرد الخروج من بيته صباحاً. سألت رائد جوحي، القاضي الشاب الذي أصدر مذكرة اعتقال الصدر الذي يقوم بالتحقيق مع صدام حسين في مكتبه بمحكمة الجنايات المركزية عن السبب الذي جعله يخرج للعمل كل يوم. وكان قد نجا من ثلاث محاولات اغتيال.

قال جوحي، وانحنى للأمام ورمقني بنظرة: «إذا بقيت في البيت وبقيت أنت في البيت، وبقي غيرنا في البيت، فمن سيبني العراق؟ هذه معركة ياسيدي، وجميعنا جنود في هذه المعركة، وليس هناك إلا خياران: إما أن نربح المعركة، أو أن نموت، ليس هناك خيار ثالث».